

الفصل الثاني

بابل وإسرائيل

حمورابي :

في قسم من أقسام متحف اللوفر في باريس ، الذي يحوى آثاراً من بلدان الشرق الأوسط ، يسترعى انتباه الزائر صندوق زجاجي موضوع في مركز وسط يحوى شيئاً غريب الشكل قائم المظهر نوعاً ما . هذا الشيء هو شقفة من حجر الديوريت الأسود ارتفاعه قائماً يصل إلى حوالي ثمانية أقدام ويبلغ قطره قدمين . وإذا ما فُحص عن قرب نلاحظ أن البلاطة برغم أنها ناعمة ومصقولة بل تلمع لمعاناً خافتاً في أجزاء منها ، فإننا نلاحظ أنها مخططة بجزوز وعلامات إسفينية الشكل مرتبة في خانات عمودية طويلة يبلغ عددها أربعة وأربعين ، تحمل هنا وهناك دليلاً على تشويه متعمد ، وتتكون من كتابة باللغة المسارية واضحة بصورة تبعث على الدهشة . ويبدو أن النقوش عليها ترجع إلى حوالي أربعة آلاف سنة مضت ، وفي قبة العمود نقش من النقوش يمثل شخصاً ملتجئاً جالساً ، ربما كان صورة لإله ، يقدم هدية إلى آخر ، هو ، برغم أنه صُور واقفاً في وضع ينم على احترام ، فإنه يعرف قدر نفسه ويرتدى رداء وخوذة ملك . ماهي هذه الهدية ؟ واضح أنها كانت شيئاً غير مادي ولكنه بالغ الأهمية إنه في الواقع جوهر ما كتب على الطرف الأسفل من العمود ، لأن الشخصية الجالسة هي شخصية إله الشمس البابلي «شاماش Shamash» ، أما الشخص متلقي الهدية فهو حمورابي Hammurabi ملك بابل ، أما الهدية نفسها فهي أقدم دستور تشريعي في العالم .

إنها صيحة بعيدة المدى والزمن معاً من ذلك الضريح الزجاجي المحفوظ في متحف اللوفر إلى المكان الذي أقيمت فيه الشقفة لأول مرة ، عندما أمر حمورابي بنقشها حوالي سنة ١٩١٠ ق . م ^(١) لقد قرر أن تقام في بقعة يستطيع أن يراها منه كل شخص ، وكان هذا المكان المختار هو المعبد الموجود في «سبار Sippara» ، وهي مدينة لاتبعد كثيراً عن بغداد ، عاصمة العراق الحالية ، وكان يراعى في بناء المعابد في بابل أن تشرف على المباني المجاورة ، وكانت أساساتها

(١) مازال هناك خلاف واضح في الرأي فيما يتصل بالتاريخ الصحيح لحكم حمورابي .

بمستوى السقوف ، وكانت تستخدم أيضاً كمحاكم . وقد بقي في «سبار» عمود التوبة The Admonitory Pillar لقراءة ألف سنة ، وقد استمرت القوانين المدونة عليه ، طوال هذا الزمن ، تلقى احترام وطاعة البابليين - كما كانت الحال في الواقع لخمسمائة سنة أخرى : فترة نفوذ اقترنت ببضعة دساتير تشريعية أخرى أعلنها فرد واحد . وحوالي سنة ١١٠٠ ق . م ، انتزعه ونقله ملك إقليم مجاور لـ «إيلام Elam» وهو الذي يعد مستولاً عن التشويه العابت لخمسة من أعمدته ؛ ونقول «عابت» لأنه في الوقت الذي كان أمراً عادياً بالنسبة للملك مصر أن يشوه الآثار بقصد إعادة التدوين عليها من جديد^(٢) ، فإنه يبدو أن التخريب فيما يتصل بدمستور حمورابي لم يكن له من هدف أو قصد . ثم اختفى العمود بعد ذلك لما يقرب من ثلاثة آلاف سنة ، محفياً من عقول الناس كل شيء تقريباً كان معروفاً عن حمورابي ومعاصريه ، وأخيراً في سنة ١٩٠٢ ، اكتشفه أثرى فرنسي يدعى «دى مورجان de Morgan» في أثناء تنقيته في آيروبوليس Aropolis في سوسا Susa في إيران الحديثة ، وهو في اكتشافه لهذه الكتلة من الصخر قد ساعد على وصل فترة شاغرة في معلوماتنا التاريخية تقدر بأكثر من ألف سنة .

وقد يقال إن تطوير القانون ، لكونه فرعاً من السياسة والاقتصاد يجب ألا يكون له مكان في كتاب ينهم بالفلسفة . وهذا صحيح تماماً من بعض الوجوه ، خاصة بالنسبة للتشريع العصري ، ولكن كتاباً يتناول تاريخ الفكر لا يمكن أن يتجاهل بالمرّة أقدم المحاولات لوضع إطار لدستور تشريعي بقدر عدم تجاهله لأساس الطب أو الفن . والقانون يتضمن المشرع ، وليست محض صدقة أن نحاك حول شخصيات معظم عظماء مشرعي التاريخ أسطورة مختلفة تكاد تكون شبه دينية . إن من نشر الحكمة بين البشر لابد وأنه بالمثل نشر القانون ، حكمة العيش عيشة صالحة في المجتمع ، أو إذا كان هذا البند الهام من المعرفة قد استبعد ، فقد اضطر شخص مسئول وموضع ثقة في القبيلة ، مثل موسى عليه السلام أن يذهب ويحضرها سعيماً وراء الحكمة . وأصول القانون المقدسة الواضحة ، أو الحقيقة التي اعتبرها المشرعون أمثال حمورابي ضرورية لصيغ قوانينهم بالصيغة المقدسة ، لها أهمية كبيرة لدى الفيلسوف الذي باهتمامه بمسائل القيم يريد أن يتأكد ما هو الشيء الذي يعتبره الناس مقدساً بصفة خاصة .

(٢) كان يحدث أحياناً أن اسماً قديماً أو مكروهاً كان ينقش صنماً على أثر لشيء إلا يحمى ويعاد كتابة اسم غيره ، وكان حور محب ، على شاكلة كتبة الإعلانات في عصرنا الحديث ، متعاداً على أن يؤكد نفوذه بهذه الطريقة

وهناك سبب اخر لماذا ينبغي على دارس الفلسفة أن يهتم اهتماماً خاصاً بطبيعة القانون . والقانون مسألة عبارات - أو ربما قد يكون أكثر صواباً أن نقول صيغة من عبارات . وإذا كُتب مرة يصبح شارحاً نفسه ومطابقاً نفسه للعبارات التي يُفسَّر بها ، وإذا ما أدخلت أبسط تغيير في الصيغة غيّرت القانون في آن واحد . (وإذن فإن المغالطة القانونية عنصر لا مفر منه بل ولا بد منه في كافة الشرائع ، الأمر الذي يثير سخط العلمانيين ، الذين في كراهيتهم لحقيقة أن القانون لا يمكن أن يوضع لكي يعنى ما يريدونه أن يعنى ، يوضحون الضرورة المطلقة للقانون) إذن ، فالوسيلة الوحيدة الفعالة لإقناع الناس بأن القانون لا يمكن تغييره بدون الكف عن أن يكون قانوناً لا تكون إلا بأن يدون ، وهذا الإجراء إجراء تدوين القانون على صخرة أو شقفة ، أو أى شيء من المحتمل أن يبرهن أن يكون أكثر بقاء ، كان أسلوباً آخر لتدعيم قدسيته ، طالما أن الكتابة ذاتها كانت فناً مقدساً .

وكسّر وكشّء صعب المنال ، كانت مثل هذه الكتابة لا يفهمها إلا أقلية ممتازة ، بالرغم من أن من كانوا يفهمونها ربما يقل عددهم عن يفهمون دساتيرنا التشريعية في عصرنا الراهن . والقول بأن القانون كان عليه أن ينتظر اختراع الكتابة قبل أن يدون ، قد يوحي بأن القانون لم يكن في الأصل شيئاً سوى عرف غير مدون ؛ وقد يكون هذا صحيحاً فيما يتصل بأسس معينة في القانون ، ولكنه ليس صحيحاً بالنسبة للقانون بوجه عام ؛ فالقوانين المدونة هي عادة تلك التي لا يشترط فيها العرف أى شرط . لقد قرر حمورابي أن يدون ٢٨٥ قانوناً من مثل هذه القوانين . وعلى العكس من ذلك ، لو كان العرف قد أوقف لمدة طويلة أعمالاً معينة باعتبار أنها بغیضة ، فإن مثل هذه المحظورات لانتجاجة بالضرورة لأن يرد ذكرها في الدستور التشريعي ، فن بين تلك الجرائم التي لم يرد ذكرها بصورة خاصة في دستور حمورابي ، على سبيل المثال ، هي جريمة القتل .

إذن ، فيما عدا اهتمام الفلسفة بالقيم ، فهي مشغولة بعلاقة الفكر بالتعبير ونتيجة لذلك ، فهي مشغولة بتعريف وتفسير الكلمات ، وإن ما يأخذه المحامي على عاتقه في أثناء بحث قانوني لمجموعة معينة من الظروف ، يأخذه الفيلسوف على عاتقه في أثناء بحث فلسفي لمجموعة معينة من المشاكل ؛ فالفلسفة صورة من صور التشريع العقلي^(٣) .

(٣) بالنسبة لتطوير هذا الخط من التفكير الذي يتضح به أن مناهج الفلسفة والتاريخ تشكل بالامتزاج ما يعرف باسم البحث الميتافيزيقي ، نحيل القارئ إلى كتاب المؤلف وعنوانه . "Approach to Metaphysics"

إن رحلة قصيرة بالسيارة من بغداد الحديثة لتنتقل المشاهد إلى بقايا بابل القديمة ، حيث نجد عاصمة «حمورابي» و «بختنصر Nebuchadnezzar» من بعده ، تحيط بها صحراء جرداء ، انكشفت الآن إلى قلة من أنقاض من الطوب الأخضر المفتت والأكبات ، ولم يبق من بقايا رخائها السابق إلا ما هو أقل مما كشف عنه في الموقع الأغرقت قدماً ، أعنى «أور Ur» عاصمة الكلدانيين The Chaldees ، التي كانت يوماً ما موطناً لإبراهيم عليه السلام ، والتي كانت قائمة على بعد بضع مئات الأميال إلى الجنوب . مَنْ كان البابليون The Babylonians ؟ كانوا خليطاً من شعبين متجاورين : السومريين The Sumerians وهي قبيلة غير سامية ، استطنوت أقصى جنوب ما بين النهرين ، في مدن مثل «أور» و«الأرقاء Urak» (المسماة باسم «إريش Erech» في الكتاب المقدس) و«لارسا Larsa» (وابلاسار Ellasar ولجش Lagash ونيبور Nippur) ، والآكاديين The Akkadians ، الذين استوطنوا «آجاد Agade» في أقصى شمال الفرات ، وهم أناس ساميون بشكل واضح كل الوضوح .

وقد تحقق امتزاج هذين الشعبين : اللذين لم يعرف لها وجود بصورة عملية قبل منتصف القرن التاسع عشر ، نتيجة نضال يبدو منه أن الآكاديين خرجوا منه ظافرين . واللغة البابلية كلغة ، لا مفر من القول بأنها كانت خليطاً في تركيبها ، إذ كانت تحوى كلمات سومرية وآكادية كتبت غالبيتها بالحروف السومرية ، التي لم تكن تصور حروفاً بل مقاطع ، ولكن بالتدرج أخذ العنصر السومري تحمل محله مفردات تسودها السامية ، وصارت اللغة السومرية ذاتها لغة كلاسيكية لم يكن يدرسها إلا العلماء والكهنة. وقد واجهت حمورابي في إخضاعه لكل من «سومر» و«آكاد» ، مهمة مزج هذين الشعبين - وهما نفسها مكونان من عدة إمارات صغيرة - في وحدة . ومن دليل الأختام ومختلف النقوش التي فككت طلاسمها يمكننا أن نصل إلى أن حمورابي كان أساساً رجل عمل ، ولكن برغم أنه كان يفاخر جهازاً بمآثره العسكرية ، لم يكن أقل اهتماماً بأنه يجب على الأجيال القادمة أن تعلم عن إنجازاته المدنية في مجال البناء والرى . وسواء لأنه كان ينقصه الميل إلى القوة التي كان يلجأ إليها الغزاة بمنتهى السهولة أو لأنه كان يعتبر نفسه قوياً بما يكفيه لأن يكون في غنى عن مثل هذا الأسلوب من إثارة الرعب في أعدائه فهو لم يخلف وراءه بياناً بمذامجه وتخريباته مثل تلك البيانات التي بقيت من عهود غيره من الفاتحين الأقدمين . لقد أعلن «آشور بانيبال Ashurbanipal» الذي حكم آشور بعد

ذلك بعدة قرون ، أعلن في تفاخر عن تدميره لمدينة «عيلام» إذ قال : «لمدة شهر وخمسة وعشرين يوماً دمرت أحياء عيلام ... وأبناء الملوك وأخوات الملوك وأفراد الأسرة المالكة في عيلام صفاراً وكباراً حكاماً ومحافظين ، فرساناً وعمالا ، أكبر عدد منهم ، ومن السكان رجالا ونساء ، كباراً و صفاراً ، خيولاً وبغالاً وحميراً ، قطعاناً ودواب ، أكثر عدداً من أسراب الجراد - حملتهم جميعاً كغنيمة إلى آشور... وصوت الرجال وديب القطعان والدواب وصيحات الطرب السعيدة - وضعت لها حداً في حقولها التي خلقتُها للحمير والغزلان ، وخلقْتُ للناس كل نوع من الحيوانات المفترسة»^(٤)

على أن حموراني ، من ناحية أخرى ، دون ما يلي : «عندما أعطاني آنو Anu وإينيل Enil ، إله يونيك Unik ونيبور Nippur «أراضي «سومر» وآكاد لأحكامها واستودعاني . صولجان الملك هذا ، حفرْتُ قناة حموراني - نوخوش نيشي (حموراني - رخاء - النام) التي تأتي بالماء الوفير إلى أراضي سومر وآكاد ، وحولتُ شاطئها إلى أراضي زراعية ، وجمعتُ أكواماً من القمح وزودتُ الأراضي بمياه لا ينضب معينها ... وجمعتُ شمل الناس المتناثرين : بتحويلهم إلى الرعي وأمددتهم بالمياه وجعلتهم يرعون بوفرة وأنتحت لهم الاستقرار في أماكن آمنة». ويبدو في الواقع أن حكمه الذي دام اثنين وأربعين سنة ، كان حكم رخاء نسبي وتقدم وسلام نسيين لاسيا وقد تخلص من منافسيه .

ومن السهل تفسير عبارة مثل العبارة السابقة بأكثر من طريقة : في إعلانه بأن الإلهين «آنو» و «إينيل» «أعطياه» كلا من سومر وآكاد ، و «استودعاه» السلطة الملكية ، لعل «حموراني» كان ينقل في دهاء ما كان يفضل غيره من الغزاة أن يعلنوه بصراحة تامة ، أعني أنه استولى بالقوة على ما قصد أنه أخذه بالطريقة نفسها . ويقدم حموراني دستورهِ بدعوى لا تنقل ورعا : «عندما يعهد» «آنو» المتعالى ، ملك «أنوناكى Anunaki» ، و «بعل»^(٥) ملك السماء والأرض ، الذى يقرر مصير البلاد ، عندما عهد إلى «ماردوك Marduk»^(٦)

(٤) هذا على فكرة نموذج معتدل نسبياً من ادعاءات آشور بانيبال (وكان الإغريق يسمونه ساردانا بالوس Sardanapalus) لى تعبا الأجيال التى تجمعه بعده . (٥) بعل Baal إله الأرض .

(٦) كان إله بابل فى الأصل إله الشمس مثل شاماش ، وأطلق عليه فيما بعد اسم بعل ماردوك Bel-Marduk ليعنى أنه انتحل ألوهيات الآلهة الأخرى وكان هناك فى الأصل ألوف من تلك الآلهة وكان كثير منهم تنقصهم الشخصية الكاملة ، ولم يكن ليعبد عبادة فردية . ولما كانت الآلهة تفوق الناس فى عددها ، لذلك كانت الديانة البابلية تمثل أبعد انتقال من مذهب التوحيد فى التاريخ .

بحكم كل البشر ، عندما لفظا باسم بابل السامى ، وجعله مرموقا بين أرجاء الدنيا ، وأقاما في وسطه ملكاً أبدياً أسسه ثابتة كالسما والارض . عند ذلك أطلق على «آنو» و «بعل» اسم حمورابى الأمير الفذ ، عابد الآلهة ، لأكون سبباً فى نشر العدالة فى البلاد وللقضاء على الأوغاد والأشرار ، ولأمنع القوى من اضطهاد الضعيف ... ولأنير الأرض وأعمل على رخاء الناس . وحمورابى ، الحاكم الذى عينه الإله «بعل» هو أنا ، الذى جئت بالكثير والوفير ... حاكم الناس ، الخادم ، الذى تسعد أعماله «أنونيت Anunit» .

والجنس البشرى كان معتاداً على العبارات الرقيقة ، خاصة فى المنشورات أو المقدمة للدساتير ، وهو بلاشك معتاد أيضاً على بقائها كمأ مهملا ، ولسنا فى حاجة إلى افتراض أن كلمات حمورابى هذه كانت فحسب ستاراً للعنف والجشع اللذين تتصف بهما أفعال الحكام المطلقين . ولما كان المؤرخون قد تمردوا أن يستعرضوا النتائج غير المتوقعة للعنف التى تختلط بحدود الماضى ، لذا ، فهم كثيراً ما يتخذون موقفاً تهماً بما فيه الكفاية تجاه الدافع البشرى ، ولذلك يصفون كل عظماء الرجال بأنهم إما أوغاد أو منافقون . ومن المحتمل ، إذا كانت هذه هى الحال ، أن يكون سلوكنا مع إخواننا من الرجال بسيطاً إلى حد كبير ، ولكنه واضح أن هذا الادعاء يفوق حدود الذوق السلم ، لأنه إذا كانت كل الدوافع ماثرك فقد لا يكون هناك شىء يثير الشك تماماً مثلها لو كان كل الناس منافقين فستسقط أقتنهم تلقائياً من على وجوههم نظراً لأنه لم تعد هناك حاجة لاستخدامها . ومعنى ادعاء حمورابى بأنه أقام العدالة والسلام فى بابل لا يمثل كثيراً فيما إذا كان قد فعل هذا الأمر بالفعل ، برغم أنه يبدو أنه قد فعله ، ولكن فى اعتقاده أنه كان يرى أن محاولة ذلك جديرة بالتقدير ، ولا كان قد تجشم مشقة وضع الحقيقة مدونة لو لم يكن معتقداً بأن شعبه ومن سيخلفونه قد أعربوا عن موافقتهم . تأمل مرة أخرى فى الطريقة التى ينهى بها دستوره : «أنا الحاكم الحارس ... أضم بين أحضانى أهالى بلاد سومر وآكاد ... وبمكتى كبحت جاجهم ، حتى لا يضطهد القوى الضعيف ، وحتى يتحتم عليهم أن يتوخوا العدل فى معاملتهم اليتيم والأرمل ... دع أى شخص مظلوم له حق يمثل أمام صورنى كملك للعدالة ! دعه يقرأ النقوش التى على ضريحى ! دعه يعبر وزناً لكلماتى الراجحة ! اللهم اجعل ضريحى ينير له طريقه ويدرك قضيته ! اللهم أرح قلبه (إذا ما قال) : حمورابى فى الواقع حاكم أشبه بأب حقيقى لشعبه ... أقام الرخاء لشعبه طوال الزمن

ومنح البلاد حكومة طاهرة... وفي الأيام القادمة ، اللهم اجعل الملك الذى يتولى حكم البلاد يراعى كلمات العدل التى كتبها على ضريحى !^(٧) .

هذه الفقرة تعد بإجماع الآراء أكثر أهمية من تلك التى يستهل بها الدستور ، لأنها لا تتطلب فحسب إقامة العدالة بل تدعو كل إنسان لأن يضع هذا المطلب تحت الاختبار . وفي حكمة بالغة كان حمورابى حريصاً على أن يحدد أن الإنسان يجب أن تكون عنده حاسة الحكم على الأمور من أول وهلة ، فإذا ما تبين أن رافع الدعوى يضيع وقت المحكمة ، فمن المحتمل أن توقع عليه أقصى العقوبات خاصة في حالة الخيانة العظمى . ولقد ورد بالمادة الأولى من الدستور أنه « إذا وجه إنسان اتهاماً إلى شخص آخر وكان الاتهام فيه احتمال خيانة عظمى ، ولكنه يعجز عن إقامة الدليل على ذلك ، فلا بد من إعدام الشخص الذى وجه الاتهام » وهكذا زالت لعنة من أشد اللعنات في مجتمع فيه الجزاء القانوني في متناول الجميع ، أعنى الإفراط في المقاضات Excessive Litigation ، زالت بأسلوب يكاد يكون أكثر فعالية من الإلزام بالتكاليف الباهظة ، الإلزام الرادع المألوف في العصر الحديث .

ولو صدقنا ما ذكره حمورابى لاستبج ذلك أنه لم يكن مؤسس أول دستور تشريعى فحسب ، بل كان يعد في اعتبارات معينة مؤسس أعظم دستور مستنير وحر عرفه العالم . وقبل الوصول إلى هذه النتيجة الجديرة بالاعتبار فيما يتصل بنظام نشأ منذ قرابة أربعة آلاف سنة مضت ، يجب أن نفحص مزيداً من نصوصه التفصيلية ، وهى بدائية وتقديمية في آن واحد ، فالعقوبات البربرية والغرامات المعقولة (وتختلف أحياناً تبعاً لمركز الشاكي : فيكون الثمن أعلى لو ضربت نبيلاً مما تدفعه لو ضربت واحداً من الدهماء) تُفرض على الجرائم الأعظم أو الأقل خطورة . أما عن القانون الثأري الروماني Lex Talionis والدستور الموسوى الذى ينادى : العين بالعين والسن بالسن^(٨) ، فلم يكن دستور حمورابى سابقاً لها فحسب ، بل كان يطبق

(٧) يمكن دراسة دستور حمورابى The Code of Hammurabi في نسخة ز.ف. هاربر مطبعة جامعة

شيكاغو ، ١٩٠٤ ، ومنها نقلت الأجزاء السابقة ، أو إرجع إلى كتاب وأقدم دستور تشريعى تأليف س. ه. جونز C.H.W. John's : The Oldest Code of Law, 1903. .

(٨) لمعرفة تأثير دستور حمورابى على الدستور الموسوى ، انظر الجزء الخاص بالدستور وكتاب العهد في هذا الفصل من الكتاب .

تطبيقاً تشريعياً دقيقاً. وبالإصرار على أن المجرم يجب أن يعانى تماماً ما يمثّل الضرر الذى ألحقه بضحيته ، فإن الرجل الذى يقتل ولداً لا يعاقب بتنفيذ حكم الإعدام فيه هو نفسه بل فى ابنه وهلم جراً ، وبرغم ذلك ، فإنه من بين هذه القرارات المذهلة تظهر شرائع سابقة لأية شرائع أخرى وإن لم تكن قد صيغت صياغة تشريعية : مثلاً ، القانون الذى ينادى بأنه إذا ما وقع إنسان ضحية للصوص مجهولى الشخصية ، فإنه بناء على كتابته لتقرير مفصل عن خسارته ، وقسّمه وشهادته شهادة مغلفة مناسبة ، يتلقى تعويضاً من الاعتمادات العامة .

وواضح أن حمورابى لم يخطط كل هذه الإجراءات هباء . ولما كان فاتحاً ذكياً ، فلا بد أنه وصل ، بكل تأكيد ، إلى هذا النظام يجمعه الدقيق وتنسيقه لقوانين الولايات التى أخضعها مؤخرأ .

وفى الوقت الذى يحوى فيه دستور حمورابى الكثير من الإجراءات المستنيرة ، لم يعرأى لهتمام على الإطلاق لحقوق الفرد قبل الدولة . ومن المسلم به أن عدم وجود مثل هذا النص ربما لم يكن مردّه بالقدر الأكبر إلى التسلطية الواعية بقدر ما كان مردّه إلى حقيقة أنه لم يواجه حمورابى ولا رعاياه وضعاً يمكن أن تُأرَس فيه مثل هذه الحقوق . وكانت « بابل » على شاكله « سومر » ، بلداً يحكمها رجال الدين ، وكان الملك - برغم أنه لم يكن هو نفسه كاهناً ، يتشجع بالأردية الكهنوتية عند توبيخه ، وهذا يعنى الوحدة المطلقة أو التطابق المطلق للكنيسة والدولة ، ولم تكن الضرائب تفرض باسم الملك بل باسم « ماردوك » الذى كان يعتبر مالكاً لأرض بابل ، وكانت معظم الأموال تذهب إلى الكهنة ، وإذا ما احتاج الملك إلى معونة مالية ولم يكن مشتبكاً فى حرب قد يبدو أنها تستنزف مالا ، كان مضطراً لأن يلجأ فى طلب المعونة إلى خزائن المعابد ، برغم أنه كان كثيراً ما يحجم عن القيام بهذا الأمر اللهم إلا فى الظروف العصبية . وفضلاً عن هذا ، لم يجد المحامون المحترفون عيشاً لهم فى هذا البلد الذى كان يسوده القانون والنظام . وكانت الإجراءات القانونية يتولاها الكهنة ، الذين كانوا يستخدمون المعابد كمحاكم للجنايات العامة ، ولذلك صارت محاكم الرب - وقد صار هذا التعبير مألوفاً لنا بعد استعماله فى الكتاب المقدس - هى أيضاً محاكم الناس . وفى حين أنه لم يكن يعتبر ملوك بابل محرّكين لمسار الطبيعة ولا منسقين لأعمال الحكومة ، فقد ظلوا معينين تعييناً قدسياً حكاماً وآباءاً لشعبهم ، مميزين عن الحكام العاديين بأنهم اكتسبوا سلطة من أجدادهم ، وكان القيام بأية ثورة ضدّهم ، بل حتى بأى نزاع فى وجههم : يُعدّ عملاً من أعمال العقوق .

وهكذا لم يكن شعب حمورابى يملكون أى سبيل من سبل توكيد حقوقهم ضد نظام الحكومة بالقوة ، فلقد كانوا يتمتعون فى نطاق ذلك النظام بقدر كبير من التقدم المادى والحياة من أبة مضايقات. ولقد نُظِمَ التملك والزواج والحرف والتجارة والعمل بأسلوب يوحى بحياة اجتماعية كثيرة الحركة تكاد تكون حكيمة ، لأنه واضح أن تعاليم حمورابى لا بد وأنها صيغت فى وقت كانت فيه التجارة والصناعة ، برغم أنها كانت كثيراً ما تخضع لرقابة الكهنة ، قد بلغت درجة راقية من التطور ، كما أنه ليس لدينا من سبب يوحى بأن حمورابى كان مهتماً بصفة خاصة بالحث على الرخاء المادى لشعبه . وقد ندين للبابليين بمبادئ علم الفلك والرياضيات والطب ، ونحن نعلم من الآثار الأدبية التى عُثِرَ عليها أنهم كانوا علماء مثابرين كما كانوا ، ولتجاوز عن خطأ طفيف فى التسلسل التاريخى ، مولعين باقتناء الكتب . وكان كل معبد لهم يحوى مكتبة تتألف من لوحات من الطوب محفوظة فى جرار كما لو كانت فى أبراج حمام . وعلى مجموعة من مثل هذه اللوحات ، عُثِرَ عليها فى مكتبة الملك « آشور بانيبال » فى نينوى فى سنة ١٨٥٤^(٩) ، نقشت القصة البابلية عن الخلق ، ولاتشكل هذه اللوحات إلا سبعة من ٣٠,٠٠٠ لوحة غيرها نسخها الآشوريون من أصول فقدت الآن ، وهى تزودنا بتفصيل عن المجتمع البابلى يفوق مالدينا من آثار عن شعوب أكثر ارتباطاً بنا ومعاصرة لنا فى الزمن . وتصور معظم هذه اللوحات : علاقات العمل الروتينية ، بما فى ذلك العقود والإيصالات بل حتى الإيصالات البسيطة الخاصة بالمديونية ، IOUs

فى اعتقاد غالبية الناس أن نظرة على تاريخ بضع مئات من السنين ق . م قد تودى إلى نوع من الدوار التاريخى ويحتاج هذا الإحساس النسبى للافتقار إلى علامات زمنية مميزة ، أو نجوم محددة فى الفلك التاريخى . وقد عاصر حمورابى على وجه التقريب الكاهن المعتزل « نيفروهو » الذى كان يرى لتدهور المستويات الأخلاقية فى مصر فى زمنه ، ورحب بمجىء ملك متقد ، ونحن نعتقد أنه أمنمحات الأول (٢٠٦١ - ٢٠١٣ ق . م) . ولقد أشرنا إلى الجدل بين مؤرخى الحضارة القديمة فيما يتصل بالتقدم الأخلاقى النسبى لبلدان مثل مصر وبابل ، وفى أساليب كثيرة سار تطور العلوم والفنون فى خط مواز إلى حد ما : لأن مشكلات الكتابة أو الرياضيات والحكومة تفسر على أنها ضرورة تُؤلَّد اختراعاً . وفى حين كان المفهوم

(٩) سلب « سناشرب Sennacherib » بابل ق سنة ٦٨٩ ق . م وحكم « آشور بانيبال » من ٦٦٩ حتى

المصرى عن الحياة ، وقبل كل شيء عن الحياة الصالحة ، قد نضج مبكراً ربما بما يقرب من ألف سنة عن ذلك المفهوم البابلي ، وتطور مع استمرار أعظم وثبات أعظم ، فإنه يجب علينا ألا نقلل من قدر تنور مجتمع أخذ فيه الحاكم على نفسه اختياراً ، دون التردى في التفاهز الباطل ، « منع القوى من اضطهاد الضعيف وتنوير البلاد والسعى للعمل على رخاء الناس » ، إذ أنه واضح هنا معنى « العدالة المجردة » ، واستناداً عليه لم تأت أحكام متأخرة من هذا اللون بأى تطوير واضح . ولقد شهد القرن الحالى ، بغض النظر عن الماضى كله ، التأييد العلنى لنظريات الحكومة فيما يتصل بحقوق الضعيف إزاء القوى - أو ما يشبه ذلك ، الأقلية إزاء الأكثرية - التى لم تلق إهمالاً بقدر ما لقيت من سخرية وتهكم . ومرة أخرى ، قد يكون هناك جدل حول أن التجربة لاتمشى دائماً مع النظرية ، وهذا صحيح : ولكن إذا كان يهمننا تقدير النمو السلوكى أو الأخلاقى ، فلا بد من الحكم على المستويات الأخلاقية للفرد بما يؤمن بأن من واجبه القيام به ، فضلاً عما يفعله هو . إن « روح القوانين » إذا استخدمنا العبارة المشهورة التى قالها مونتسكيو Montesquieu ، هى المعول عليها. وبهذا المستوى يبرز حمورابى وأعوانه بين أوائل رائدى العدالة .

وتماماً كما عرفنا القليل عن حمورابى قبل اكتشاف الشقافات أو القراميد والدستور نفسه ، فإنه من الممكن أيضاً أن يقف الأثريون يوماً ما على تشريع ناضج ينتمى إلى عصر أكثر تيكراً ، ولعلهم قد حققوا ذلك فعلاً ، إذ قبل حمورابى بما يقرب من ألف سنة (حوالى سنة ٢٩٠٣ ق. م) أدخل يوروكاجينا Yrukagina ملك لجش Lagash سلسلة من الإصلاحات فى بلده ، كان الهدف منها « حماية الضعيف من القوى » . وفى رأى كثير من علماء الآثار أن كشافاً أثرياً شاملاً فى إقليم ما بين النهرين مثل الكشف الذى تم فى مصر خلال القرن الماضى ، قد يبيط اللثام عن حضارة أقدم فى نشأتها برغم أنه ليس ضرورياً أن تكون أكثر نضجاً من حضارة مصر القديمة ، وما لم تساندها سلسلة من الاكتشافات فى المجال الثقافى فإن اكتشاف مثل هذا البعد الجديد لن يتعارض مع ذلك مع وجهة النظر العامة التى نادى بها هنا . وكما هو الحال فى التطور ، نلاحظ كائنات ، برغم أن لها خصائص بشرية ، قد ظلت غير متطورة بصورة غامضة ، ولذا يلاحظ فى التاريخ أن الإجماعات بالحضارة تذهلنا باستمرار بظهورها المبكر . وهذا صحيح بصورة خاصة فى الفن ، إذ أن حدوده الزمنية تغلغلت إلى ما هو أبعد وأبعد ، ومع ذلك فإن ما يهمننا فى التاريخ هو الاستمرار المقترن بالخصب . ولم تكن

دعوى حمورابي الجديرة بالاعتبار هي فحسب في أنه جمع أول دستور تشريعي عظيم ، بل في أن عمله كان له تأثير عميق على الشعوب التي جاءت بعده . وكان على واحد من هذه الشعوب أن يحقق رسالة تاريخية أعظم بكثير من الرسالة التي حققها مصر أو بابل . ونحن الآن نتقل إلى هذا الشعب ، ونبدأ بالاتجاه جنوباً .

إبراهيم عليه السلام :

كانت آخر مرحلة من مراحل فتوحات حمورابي في إقليم ما بين النهرين هو هزيمته لغريمه القوي «رم - سن Rim-Sin» ملك لارسا Larsa . وكانت مدينته تقع إلى جنوب شرق «لجش» وشمال «أور» . وكان «رم - سن» الذي كان حاكماً قديراً وجواداً في زمانه ، قد تقدمت به السن . وبرهن حمورابي ، من ناحية أخرى ، على أنه قائد شاب نشيط له مقدرة إدارية فائقة . ولما عجز «رم - سن» عن استعادة ولاء الإمارات التي كانت تحت نفوذه ، عانى أول هزيمة لنفوذه ، واستسلمت الممالك السومرية ، بل إن مدينة «أور» ، وكانت مدينة سامية متعاطفة بلاشك مع حمورابي ، لم تقدم جيشاً قط في الميدان . لقد أعلنت عن نفسها في هدوء بأنها تحت حماية ملك بابل . وصار التأثير السامي في ككل من مجالي الثقافة والتجارة له السيادة في أرجاء بابل .

ونحن في وسعنا الآن أن نظرق مجال التخمين وكلنا ثقة بالغة ، عما كان عليه وضعنا منذ خمسين أو حتى ثلاثين سنة مضت . لقد كان من بين رعايا «رم - سن» رجل مازالت ثلاثة من أعظم ديانات العالم تتطلع إليه على أنه شيخها الجليل الوقور ، والأب الروحي لعقيدتها . وكان إبراهيم ، وهذا هو اسمه ، يقطن مدينة ذكرها الكتاب المقدس على أنها «أور الكلدانيين»^(١٠) وأنه طبقاً لما جاء في سفر التكوين Genesis الأصحاح الحادى عشر ، آية ٣١ «فخرجوا معاً» في صحبة أسرته كلها «ليذهبوا إلى أرض كنعان» ، وكانت هذه الرحلة ، لأسباب سنوضحها فيما بعد ، واحدة من أعظم الرحلات أهمية قام بها إنسان .

(١٠) نسبتها إلى الكلدانيين نسبة خاطئة من ناحية التسلسل التاريخي ، إذا إن الكلدانيين يتمون إلى حقبة لاحقة . ويشاهد زوار أورفا Urfu في جنوب تركيا وهي مدينة يصعب الوصول إليها ، كهفاً شهرته أنه سقط رأس إبراهيم ، وهذا الادعاء مرجعه إلى لبس في الأسماء وكانت أورفا معروفة على أنها أدسا Edessa ، في أوائل العصر المسيحي .

لم يظهر ما يسمى باسم « النقد السامى » للكتاب المقدس ، كما يعتقد كثيرون ، فى القرن التاسع عشر لقد بدأه الفيلسوف اليهودى سبينوزا Spinoza (١٦٣٢ - ٧٧) وكان قد طرده المعبد المحلى لانتقاده ادعاءات معينة نادى بها الكتاب المقدس^(١١) ، برغم أنه ليس من الضرورى نبذها على اعتبار أنها زائفة . على أنه فى القرن الأخير ، أدت الدراسة النقدية لمصادر الكتاب المقدس جنباً إلى جنب مع الكشف الأثرى للأماكن المقرونة بالكتاب المقدس ، أدت إلى تقدم جدير بالاعتبار . وكان ظهور التناقض برغم ما فيه من ذهول للورع ، دون حاجة إلى زعزعة الإيمان : إذ لو كان فى استطاعة الإيمان أن يحرك الجبال - وقد يحدث ذلك . كما يحدث فى رحلة ما ، عندما يخلفها المسافر القوى العزيمة وراءه واحداً بعد الآخر - لأمكن للإيمان أيضاً أن يتغلب بلاشك على التناقض المنطقى و « ليس هناك من مستحيل »^(١٢) ، ولكن بالنسبة للمتشكك فإن ظهور التناقض دليل حاسم على الخطأ ، ولذلك فإنه عندما وجه النقاد الاهتمام إلى التناقضات وإلى الأخطاء فى التسلسل التاريخى فى الكتاب المقدس ، فإنه كثيراً ما كانت القصص الواردة فى الكتاب المقدس برغم أنها لاتزال « أدباً رفيعاً » ، تستبعد على أنها خيالية .

وباستبعاد كل ما هو غير ملائم ويفضح الدراسة غير الصحيحة يكون النقد السامى قد حقق الكثير مما كان له قدره . والقول بأنه قد حل محله هو إلى حد كبير : قول صحيح . لقد ترك المجال إلى الذى ما يزال نقداً أسمى ، بصورة ثابتة تماماً وهذا النقد الأسمى لم يسع فحسب إلى الوصول إلى الحقائق من خلال سديم الأسطورة ، بل كان يسمى أيضاً إلى فحص العنصر الأسطورى نفسه وتحليله .. وفى رأى النقد القديم مثلاً ، كانت حقيقة أن شخصيات مثل إبراهيم أو موسى يحيط بها أشباه ظلال من الأساطير كانت كافية للبرهنة على أن هذه الشخصيات هى ذاتها كانت أسطورية ، كما لو كانت عظمة ذبوع الصيت والشهرة بعد الموت كافية لإثارة الشك حول حقيقة الشخص المرتبطة به . ولقد كان لهذا الوضع نتائج غريبة معينة . وفى إنكارهم لواقعية الشخص برغم اضطرارهم إلى قبول واقعية الأسطورة ، شرع مثل هؤلاء النقاد - ومن بينهم بعض علماء النفس المرموقين - فى تطوير نظرية بها لعبت الأساطير ، خاصة ما كان لها علاقة بزعماء الرجال ، دوراً فى التاريخ أحسن ما يوصف به أنه أساس أو

(١١) انظر المجلد الثانى للمؤلف الفصل الثامن .

وسيط . ومثل هذه الأساطير إما أنها جعلت التاريخ يأخذ في الانطلاق أو مكته من أن يبدأ من جديد . وبالنسبة للشخصيات المعينة المقترنة بالحضارة الأولى هذا التفسير مقبول ، برغم أنه لا يزال الأشخاص الذين لهم دخل في إبداع الأسطورة هم الذين يمدوننا بالعناصر الديناميكية في التاريخ ولا تزود بأى شيء غير شخصي أو « نمطي » . وفي حالة الرجال ذوى الأفعال المشهورة التي نقلتها الأحاديث الشفوية على مدى قرون ، ثم سجلها الكتبة ، فإنه من الضروري تناوهم بصورة مختلفة خاصة إذا كان علم الآثار يمكنه في الوقت نفسه أن يؤيد صدق التفاصيل الثامة . وبناء على هذا تناول ، فإن ظل الأسطورة يُنظر إليه على أنه من المحتمل أن يحيط بالشخصيات التاريخية التي تستدعى إنجازاتها مثل هذا التجميل ، نظر لأنها كانت حقيقية . ولما أذاع أعضاء الأكاديمية المتحمسون قصة أن أفلاطون كان ابن أبوللو Apollo ، وأن النحل قد استقر على شفتيه وهو طفل ، فتنبشوا بكلماته المعسولة ، ما كانوا يجاهدون ليوضحوا أن أفلاطون لم يكن له وجود ، بل كانوا يجاهدون ليوضحوا بأسلوب عصرهم ، كم أنه كان رجلاً عظيماً .

وبالرغم من أن التنقيبات عن الآثار بدأت في « أور » تحت إشراف البعثة البريطانية في البصرة في سنة ١٨٥٤ ، واستؤنفت في صورة منظمة في سنة ١٩٢٤ تحت رئاسة « سير ليونارد وولى Sir Leonard Woolley » لم يكتشف في نقش واحد من بين تلك الثروة المادية التي وجدت طريقها إلى النور ، أنها تحوى إشارة إلى إبراهيم عليه السلام . وعندما نتبصر فيما وجد من إشارات يسيرة إلى أشخاص عاشوا آلاف السنين بعد ذلك - مثل شكسبير Shakespeare - فإن انعدام وجود مثل هذا الدليل المباشر لا يحتاج إلى أن يقلقنا قلقاً بالغاً . وما يدفعنا إلى افتراض أن إبراهيم الذي ورد ذكره في الكتاب المقدس كان موجوداً بالفعل ، هو حقيقة أن البيان الوارد بالكتاب المقدس يطابق ما لدينا من معلومات ، حصلنا على معظمها مؤخراً جداً ، عن القوم الذى يقال إنه يسمى إليهم .

من كان هؤلاء القوم ؟ إن أول ذكر معروف عن العابيرو Habiru الذين يتفق العلماء اليوم على أنهم هم أنفسهم العبرانيون Hebrews ، كان وجودهم في عهد « رم - سن » منافس حمورابى المسن . ولم تكن الإشارة عرضية . «والعابيرو» متفق على أنه وصف واضح ، إن لم يكن سديداً . والنصوص السومرية تصورهم تصويراً رمزياً أو تصويرياً ، إذا ما ترجم فإنه يعنى بصراحة قوماً رُحلاً قطاع طرق أو قتلة . والآن برغم أننا نجد في سفر التكوين

(أصحاح ١٤ آية ١٣) أن إبراهيم عليه السلام نفسه يوصف على أنه أبرام العبراني ، يشار إلى ابن أخته أو أخيه اللدعو «لابان Laban» (أصحاح ٢٥ آية ٢٠) ، ثم بعد ذلك يعقوب Jacob ، على أنها سوريان أو آراميان . ولاشك أن الآراميين The Aramaeans قبيلة مماثلة تماماً أو لها علاقة بالآموريين « ، أما عن أن الآموريين قد تمتعوا بنفس الشهرة التي تمتع بها العاييرو في عهد «رم - سن» فتبرهن عليه إشارات مختلفة : فهناك نشيد سومري يمتدح «آلهة الغرب» يرجع تاريخه تقريباً إلى سنة ٢٠٠٠ ق . م ، وهو يشير إشارة مباشرة إلى هؤلاء الآموريين الذين جاؤوا التلال الغربية . هذه القبيلة ، كما يقول النشيد : «لاتعرف الاستسلام ، وتأكل اللحم النيء ، ولاموطن لها طوال حياتها ، ولاتدفن الموتى من أبنائها» وطبقاً لمصدر مصري متأخر ، يوصف الآمورى وصفاً لا يقل وضوحاً عن أنه «بائس غريب ... لا يعيش في نفس البقعة ، قدماء دائماً تجويان . منذ أيام حورس ، يحارب وهو لا يهزم ولا يهزم» وبهذا يمكننا أن نقارن نبوءة بلعام Balaam في العدد « (أصحاح ٢٣ آية ٩) « هو ذا شعب يسكن وحده ، ومن بين الشعوب لا يحسب » . ولقد كان مرد إقامة البابليين لما يطلق عليه «حائط الغرب» في وقت مبكر في الألف الثالث ق . م ، إلى رغبتهم في وقف تسلل هؤلاء القوم المتمردين . وحيث برهنت مثل هذه الإجراءات على أنها غير فعالة ، بذل الحكام المحليون أقصى ما لديهم من جهد ليعلموا البدو أعمالاً نافعة ، وسواء كانوا يستخدمون في جباية الأموال (١٣) ، أو في استغلال خصالهم العسكرية ، كانوا يجندون في الجيش ، وإن كانوا في فرق خاصة على شاكلة أقلييات الجند المرتزقة. ولما كان «رم . سن» هو نفسه جندياً ، فإنه يبدو أنه كان يفضل اتباع الأسلوب الأخير .

ونقرأ في ذلك الكثر من المعلومات الغربية ، أعني «رسائل تل العمارنة» ، التي سبق أن أشرنا إليها فيما يتعلق بمشكلات أخنتاتون الإمبريالية ، عن أناس يسمون العاييري Habiri وكانت غاراتهم المتفرقة داخل فلسطين من الصحراء تثير قلق الحكام المحليين الذين كانت مناصبهم تحت إشراف الفرعون . وكان العلماء ، لفترة من الزمن في شك مما إذا كان «العاييرو» هم «العاييري» ، وهم يميلون اليوم إلى اعتبارهما شيئاً واحداً ، لأننا لو عرفنا أن «العاييرو» لم يكونوا بالضرورة جماعة سلالية بل كانوا - فحسب - قبيلة من مختلف القبائل وحدها حب الترحال ، لكانت هذه الخاصية هي الأسهل تقبلاً : ولكن «رسائل تل العمارنة»

(١٣) باستثناء أعمال السخرة ، كان هذا هو العمل الرئيسي لليهود خلال خضوعهم للأسر المصري .

تكشف مع ذلك عن حقيقة أكثر طرافة ، إذ وردت بها إشارة إلى كل من « العابري » و « الآراميين » ، ولكن الصورة التعبيرية للعبيري هي تماماً تلك التي تحمل فكرة القتل وقطاع الطرق . إذن ، فمن الممكن بل من المحتمل أن حاكماً في كتابته لتقرير إلى رؤسائه عن هجوم شنه أجنب على الأراضي الإمبريالية ، قد جمع الزمرة كلها واعتبرها كقطاع طرق ، تماماً كما اعتدنا أن نتحدث عن الهون Huns . على أن ما نخرج به من نتيجة هو أن « العابري » كانوا مقرونين بمجموعة من الناس كان يلصق بهم اسم شامل هو الآراميون . وأن هذه المجموعة كانت تحيا حياة مماثلة لحياة البدو العصريين .

وطبقاً لما جاء من بيان في « سفر التكوين » ، كان أول مكان استقر به إبراهيم عليه السلام في رحلته إلى أرض كنعان هو « حران Harran » وهي مدينة تقع الآن إلى جنوب تركيا بالقرب من الحدود السورية. وكون مثل هذا التحرك إلى الشمال تقوم به عائلة عابرية كان أمراً مألوفاً في هذه الفترة ، لا يهدم كون رحلة إبراهيم فريدة ، وكونها فريدة يرجع إلى ما أثارته ، فلقد كانت الهجرة إلى الشمال مستمرة في الواقع لبعض الوقت : إذ أن شقاقات ترجع إلى القرن ١٥ ق . م وجدت منذ عهد ليس بالبعيد في كركوك ، مدينة النفط الواقعة في شمال العراق ، تشير إلى أن كثيراً ما يلتقي بالعبيري في الأقاليم العليا لما بين النهرين. إذن ، فلقد كان هناك سبان محتملان يمكن أن تعزى إليهما هذه الهجرات : في المقام الأول ، ليس هناك ما يبعث على الدهشة في شعب رحل أن يقدم دليلاً على أنه يتجول ، وفي المقام الثاني ، قد يكون لديهم سبب للاعتقاد بأن خدماتهم ، عسكرية كانت أو مدنية ، قد تكون من الأفضل استخدامها في مكان آخر عن استخدامها في الجنوب ؛ ولقد رأينا كيف أن أعداداً كبيرة من الآموريين خدموا في الجيش السومري . ولما كانوا مرتزقة ، فلربما كان السبب الأول في تبديلهم لولاثم سبباً خاصاً بالارتزاق إذ وصلتهم أنباء تفيد بأنه يمكن الحصول على أجر أفضل وظروف أحسن في الشمال ، ويبدو بالفعل أن حمورابي لم يقدم امتيازات فورية فحسب ، إذ أنه لما كان سيداً له سيادة ما بين النهرين كله ، فهو يمنح فرصة طيبة للاستخدام الدائم لأية فرقة من فرق المرتزقة إذا رغبت في ذلك ، وليس لدينا سبب معين لفترض أن عائلة إبراهيم كانت تنتمي إلى سلالة عسكرية برغم أن « سفر التكوين » (الأصحاح ١٤) يقرر أنه نشب قتال في الصحراء اشتبك فيه إبراهيم ورجاله مع قوات أمراقل Amraphal ملك شنعار Shinar الذي يعتقد البعض أنه حمورابي ولكن مثل هذا الحادث ، حتى لو كان مستبعداً ، ربما لم

يكن غير مألوف في جماعة رحّل ، خاصة كما تذكر القصة أن غنيمة مادية كانت مضمونة. ولعله أكثر احتمالاً أن عائلة إبراهيم كانت عائلة غنية من تجار الجبال وأن حرّان - المدينة التي يحتمل أنهم كانوا على اتصال فعلي بها^(١٤) - تبدو لأسباب سيرد ذكرها بعد قليل ، أنه كان ينتظرها مستقبل تاريخي أفضل من «أور» .

وفيما يتصل بهذه النقطة ، تكاد تكون المعلومة السلبية في قيمتها قدر قيمة المعلومة الإيجابية ، إذ تشير رواية «سفر التكوين» فيما بعد إلى العدد الضخم من الجبال التي كان يمتلكها إبراهيم ، ولكن لم ترد إشارة في واحدة من آلاف التسجيلات عن أنواع التجارة ، وهي التسجيلات التي عثر عليها في مدينة «أور» ، إلى الاتجار في الجبال . والتفسير المحتمل ، الذي ألفت عليه الظروف الحديثة ضوءاً جديراً بالاعتبار ، هو أن تجارة الجبال كانت في مجموعها خارج نطاق الأعمال العادية التي تمارسها المدينة . ولما كانت مدينة «أور» يبلغ تعداد سكانها ربع مليون نسمة ، لذا فقد ظلت لسنوات مركزاً ناجحاً من مراكز التجارة . وكان المجتمع الذي يجتمع في شوارعها الضيقة ، إذا ما اقتبسنا ما كتبه سيرليونارد وولي^(١٥) ، « كان مجتمعاً شديد العناية بفرديته يتمتع بقدر كبير من الحرية الشخصية ، مادياً ، جامع مال ، ذووياً ، يقدر الراحة والأساليب الطيبة في الحياة أيما تقدير » : باختصار كان مجتمعاً حكيماً ، متحضراً ، في تناقض شديد مع المجتمع القبلي خارج حدوده . وفي الوقت الذي قد يكون فيه تاجر الجبال بالغ الثراء إلى جانب درايته بالحياة الحضارية كأى تاجر آخر ، فقد يكون مصدر ثروته ، كما كانت الحقيقة ، خارج المدينة ، بل قد يكون مستتراً بصورة خاصة . وحتى اليوم يلاحظ أن استخدام الجبال داخل مناطق أهلة بالسكان في بعض بلدان الشرق الأوسط خاضع لقيود ومرور هذه الحيوانات عبر الشوارع مقصور على فترة الليل .

ولاستكمال الصورة التي يجب أن ترسم بدقة إذا أردنا أن نفهم ثورة الفكرة التي كان مسئولاً عنها إبراهيم عليه السلام ، كان لزاماً علينا أن نعود إلى النقطة التي بدأنا منها : أعنى انهيار إمبراطورية «رم - سن» السومرية . وفي الوقت الذي لا يمكن للقائض العادي لمدينة «أور» أو «لارسا» أن يدرك كيف كان الموقف خطيراً ، لا بد وإن بدا له أن استسلام كافة المدن السومرية الكبرى في آن واحد كارثة تفوق التدمير الوحشي لمدينة «أور» على يد

(١٤) اسم حران يعني «طريق» أو «قافلة» ويشير إلى مكان أو نقطة تجمع تلتق فيه القوافل وتنفرد .

Woolley : Abraham, p. 131.

(١٥) وولي : إبراهيم ، ص ١٣١ .

العلاميين Elamites في سنة ٢١٧٠ ق.م. وإذا لم يحكم عليها بأنها نهاية السيطرة السياسية السومرية ، فلا بد أن ثقته في القوى الوطنية لاستردادها قد أصابها توتر عنيف ، ولكن لو افترضنا أن هذا المواطن المجهول الذي كان يعيش منذ أربعة آلاف سنة مضت لم يكن رحالة سومرياً بل كان رحالة سامياً لكان وضعه مختلفاً كل الاختلاف ، إذ لم يكن في الحقيقة مرغوباً فيه على الإطلاق . كان هذا واضحاً كل الوضوح من النعوت التي كانت عادة ما تطلق عليه ، وهو ، بدوره ، لم تكن له «تعبية» لأحد على الإطلاق . كانت هذه نتيجة لجنسه وعاداته والتجارة التي كان يشتغل فيها ، وفضلاً عن هذا ، فإنها العادة ، كما نعلم ، عند الشعوب في حالة الهزيمة ، أن تبحث عن كبش فداء بين الأقليات التي قدمت لها الحماية فيما سبق . ومن المحتمل أن يكون «العابرو» الرحل ، وغالباً ما كان ولاؤهم مثارشك ، قد تحملوا وحدهم جانباً من اللوم والسب . وفي هذه الظروف ، فإن قراره بالرحيل ، حتى لو كان قد اتخذته لأسباب اقتصادية ، لا شك في أنه كان سريعاً .

كل هذا قد يعلل بما فيه الكفاية رحلة أسرة إبراهيم عليه السلام من «أور» إلى «حران» وهي مع ذلك لاتلقى ضوءاً على الظروف التي نهم بها اهتماماً خاصاً. وإذا كان إبراهيم لا يزال يُنظر إليه على أنه أب لثلاث ديانات هي أعظم ديانات العالم ، فعند أية نقطة من حياته وفي الوقت نفسه مع أية تجربة روحية تخلى عن معتقدات أجداده وقدم طاعته وولائه للإله الواحد؟ مثل هذا التغيير في التطلع لا يمكن أن يحدث دون أن يكون هناك لون من أزمة روحية ، ربما محنة عائلية : لأن الحديث في ظروف دولة يحكمها رجال الدين ، لها معبدها الضخم للآلهة القومية والمحلية والأسرية والطبيعية ، كلها تتطلب ولاءً مناسباً ، قد يكون إجراءً أكثر عنفاً من مثيله اليوم . وبدون أن يحيطنا علماً بالديانة التي كان يؤمن بها إبراهيم عليه السلام أصلاً ، يؤكد الكتاب المقدس (يشوع Joshua أصحاب ٢٤ / آية ٢) أن عائلته توافرت على خدمة آلهة أخرى . أية آلهة أخرى؟ من المؤكد أنها آلهة سومر ، وبنوع خاص آلهة «أور» وكان الإله القومي وقتذاك لمدينة «أور» هو «نانار Nannar ، إله القمر . ومن الغريب جداً أن تُوقَف مدينة نفسها على عبادة إلهة القمر ، وكانت هذه المدينة هي مدينة «حران» ، وكانت الإلهة الأخيرة تسمى باسم نيراه Terah ، وكذا كان والد سيدنا إبراهيم ، فهل يحتمل أن «نيراه» وقد جاءت من عائلة من عبدة القمر ، وسميت على اسم إله مدينة أقامت معه العائلة أو على الأقل القبائل المتجولة التي تنتمي إليها العائلة ، عقدت علاقات

وثيقة؟ إذا كان الأمر كذلك ، فقد يفسر هذا السبب الذي من أجله سافر في زمن الشدة إلى المكان الذي يحتمل جداً أن يمده بالحماية والأمن .

أما عن أن « تيراه » وابنه لا بد وأنها قد غادرا مدينة من مدن « القمر » ليعيشا في مدينة غيرها ، فلا يوحى بضعف الإيمان في إله العائلة ، بل يوحى بالتصميم على الاستمرار في نفس صورة العبادة . واختيار مكان للعيش فيه ، وهو ماتمليه الأسباب الاقتصادية اليوم أكثر مما تمليه الأسباب العاطفية كان يعنى شيئاً كبيراً بالنسبة لأجدادنا . وعلى كل مستوى ، حتى على مستوى المهن والتجارة ، كانت الاعتبارات الدينية لها وزنها المناسب إذ لاشك أن زعيم الجماعة كان يعطيها هذا الوزن . ولكن في الوقت الذي قد تكون فيه سيادة الأسرة محولة للأب . لم يكن هناك شيء يحول بين إبراهيم وبين ممارسته لمعتقدات أخرى لاسيما وقد خلف « تيراه » مرة ، كزعيم للقبيلة . ونحن نعرف الآن أن « تيراه » توفي ودفن في « حرّان » وبعد وفاته ، طبقاً لما جاء في الكتاب المقدس ، تلقى إبراهيم أول رسالة مباشرة موجهة إليه من « الإله » وكانت الرسالة في هذه الحالة ، قد اتخذت صيغة الأمر ، إذ كان على « إبراهيم » أن يقود قومه إلى كنعان Canaan وأن ينشئ مجتمعاً جديداً هناك .

ماذا حدث في « حرّان » بعد وفاة « تيراه » ؟ لأنه وقتها ، لو حدث ذلك بالمرّة ، لا بد وأن يحدث التحول . أما عن طبيعته ، فلا يقدم الكتاب المقدس سبباً مباشراً . ونحن لانعلم حتى الاسم الصحيح للإله الذي أصدر الأمر بدق الخيام ، بدون إنذار واضح ، كما لم تكن عائلة إبراهيم تعرفه بأى اسم آخر غير اسم « إله إبراهيم » أو (نظراً لأن الأسرة كان لها رؤساء آخرون) « إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب » وقد ظل عدم التحديد هذا الفترة أطول مما يمكن إدراكه بوجه عام . وقد استمر لعدة قرون ربما لألف سنة حتى أفصح الإله ، في لحظة حاسمة في تاريخ القبيلة نفسها عن شخصيته لموسى . وفي عصر كانت فيه أسماء الآلهة ، وفي الواقع أسماء أى شيء ، كانت ذات دلالة خاصة ، كان هذا التكم المقصود فيما يتصل بإله إبراهيم يبدو لنا في غرابته كغرابة اقتناع إبراهيم نفسه به .

وإذا تناولنا هذه المسألة من وجهة نظر مختلفة إلى حد ما ، فقد نستطيع أن نفسر لامظاهرها المميزة فحسب بل طبيعة التحول التي لا بد وأن خبرها إبراهيم . وبرغم أن التحول قد اتخذ صورة عنيفة بحجة العقيدة المشتركة المعقدة التي كان التحول رد فعل عليها ، فإن مثل هذه التجربة ربما كانت أقل عدواناً في « حرّان » منها في « أور » بل ربما كانت سبباً في أنه قرر أن

يغادر «حران» وكان مكاناً معروفاً للقبيلة ، نازحاً إلى كنعان ، وهو مكان غير معروف ولكنه موعود .

وكما سبق أن رأينا في حالة آتون ، لاتعيش الآلهة عادة الهزيمة السياسية لعبدها . ولا يكون الإيمعان في توكيد ذلك باتخاذ موقف المتفضل الذى يتخذه المؤرخ المنطقي من المعتقدات «البدائية» فالإله الذى تتطلع إليه المدينة للحماية والتشجيع والدفاع ، مالم يكن إلهاً من نوع خاص ، لايمكن أن يبعد نفسه عن النكبات أو الكوارث العامة. وتماماً مثلما لايد أن شهد مواطن سومر الكوارث الوطنية في تشاؤم ، فكذلك لايد وأن ثقته في الآلهة الوطنية قد عانت من ضمور مماثل . وإذا كان هو وروع بطبيعته ، فإن الصورة الواحدة للتشاؤم ربما كان من المستحيل تمييزها عن الأخرى . وتقودنا التجربة في حقب أخرى وفي أزمنة مماثلة من أزمنة الشدة ، تقودنا إلى الاعتقاد بأن الأقليات ، حتى لو كانت ذات معتقدات دينية مختلفة ، قد لاتكون أقل ارتباطاً بالآلهة أو ، كما يمكن القول، بمبادئ البلد عن اختيارها عن الوطنيين أنفسهم ، إذ قد يكون التقارب منها أو احترامها قويا بصورة خاصة (لاحظ مآثر أعمال الوسطاء ممن ليسوا من أصل بريطاني خلال الحرب الأخيرة) ومن ثم فربما كانت قبائل «العايبو» برغم معاملتهم كما لو كانوا مشردين ، تضم أفراداً مثقفين كانوا يفخرون بأنفسهم بأنهم كانوا مواطنين صالحين ، شاركوا مشاركة كاملة في مواجهة الواقع عقب سقوط سومر . ومن بين هؤلاء كانت أسرة «تبراه» في عدادها . وفي هجر مدينة «أور» وفي اللجوء إلى مدينة ذات فال حسن ، يمكن أن نتصور فعلا خلافاً أساسياً في الموقف بين الأب العجوز المحافظ لاجئاً إلى مكان للعزلة في حوى إلهه الشخصى ، والابن وهو تواق لإعادة بناء مستقبله . وفي تتبعنا لتخميناتنا إلى درجة محدودة ، يمكننا أن نصور إبراهيم عليه السلام عند وفاة أبيه على أنه رجل كان على إدراك بالمسؤوليات الجسام التى ألقيت على كاهله ، يتبصر فيما يمكن أن يستفيدة من الماضى ليعاونه في جولاته المقبلة .

وبالرغم من أن رواية الكتاب المقدس تمسك حتى اللحظة المناسبة عن كل معلومات مباشرة عن «إله إبراهيم» فإننا نعرف أن لهذا الإله خاصية تميزه عن غيره . وكانت هذه الخاصية هى وجوده في كل مكان ، وكانت كل الآلهة الأخرى تقريبا ثابتة أو مقيدة الحركة ، وكان هذا مطابقاً بصورة خاصة لآلهة سومر . وفي «أور» كان إله القمر «ناتار» له مقصوراته الخاصة في المعبد ، في حين كانت لزوجته «نين جال Nin Gal» غرفة نومها الخاصة . وقد

عاش الاثنان في (أور) ، كما أنها لم يغادرا العاصمة إلا مجبرين كما حدث عندما «قبض عليها» العيلاميون عندما نقلوا تماثيلها إلى موسة Susa . وبالمثل ، كانت كل الآلهة الطبيعية ثابتة في الأرض أو الأدغال أو الجبال . أو الأنهار ، ولم يكن في استطاعتها أن تنتقل ، اللهم إلا إذ نقلتها الأشياء الطبيعية ذاتها ، مثلما يحدث عندما يفيض نهر مثلاً أو يتفجر بركان . ومن بعض النقوش الحيشية الطريفة التي ترجع إلى فترة متأخرة ، نحاط علماً بالهة معينة يطلق عليها اسم «إياني عابيري Iani Habiri» التي يمكن ترجمتها على أنها «آلهة العابيرو» وبالإشارة إلى آلهة العابيرو في هذه الصورة كان المسئولون يؤكدون بلاشك خاصية كانت معروفة عن مثل هذه الآلهة حق المعرفة ، أعني عاداتها في مصاحبة القبيلة في ترحالها .

إذن عن إله إبراهيم تتضح دلالتان : (١) أنه لم يعرف له اسم ؛ (ب) أنه كان في كل مكان ، وبالنسبة للخاصية الأخيرة ، نحن نعلم أنه ، برغم أنه غير مقيد بالحركة ، كان له معبده في هيكل الخيمة التي كانت تقام عند كل محطة كبرى يقفون بها ، ولكن لم يُقم له معبد لائق تكريماً له حتى زمن سيدنا سليمان (٩٧٤ - ٩٣٧) ق . م

وفي وصف إله إبراهيم بأنه إله غير مقيد بالحركة ، كنا نفهم كلمة «مقيد» بمعنى مرتبط بشيء ساكن ، ولكنه من الناحية الطبيعية من المحتمل أن يرتبط بشيء غير ساكن ، بشيء يتحرك . لقد كان إله إبراهيم مرتبطاً بإبراهيم وعائلته . إذن لم لا ينبغي له أن يكون إله العائلة ؟ ولعلمنا بوضع إبراهيم في «حران» ربما لم يكن هناك مفر من أن تكون اعتبارات العائلة لها أسمى اعتباراً على تفكيره ؛ لقد نبذ آلهة «أور» القومية وآلهة «سومر» الوطنية ، ولكن سواء خذته أم لم تخذله ، فإن مثل هذه الآلهة القومية المحلية لم يكن في الاستطاعة عزلها أو أنها لو عزلت تستعيد سلطانها ، كما أنه لم يكن هناك بعد وفاة «تيراه» مزيد من الإغراء لاختبار نفع آلهة «حران» القومية : فكان يموت فيه الأب لا يكون بالضرورة مقاماً يرتضيه الابن . لما قال الرب عند هذه اللحظة لإبراهيم (سفر التكوين : أصحاب ١٢ / آية ١) في «أذهب من أرضك» يعني ما بين النهرين ، ربما كان الإله الذي يربط نفسه بإبراهيم ، برغم ما قد قيل على النقيض من ذلك ، يؤكد ارتباطاً طويلاً الأمد ، ولربما كان التحول صورة من صور الارتداد .

ولو تدعمت نظرية إله العائلة لكان في استطاعتنا أن نوضح ليس فقط أن مثل هذه الآلهة قد نشأت في سومر ، بل على أية أسس ، في هذه الحالة ، ظل الإله لا اسم له . ونحن ندين

لـ « سير ليونارد وولى » بمعلومة ثمينة حول هذه النقطة وحول معظم النقاط الأخرى في تاريخ إبراهيم عليه السلام . ومن الأبحاث التي قامت بها البعثة المشتركة من المتحف البريطانى وجامعة بنسلفانيا صار واضحاً كل الوضوح أن السومريين ، في حين أنهم كانوا يولون احترامهم لعدد ضخم من الآلهة الرسمية ، كانوا معتادين أيضاً ، على عبادة الآلهة الحارسة عند الرومان أمثال لاريس Lares وبيناتس Penates . وكانت هذه الآلهة العائلية تصور عادة في صورة تماثيل صغيرة أو كما يدعوها الكتاب المقدس باسم الترافيم Terraphim ، ولكن مثل هذا التصوير كان مختلفاً عن تصوير الآلهة الأخرى في كونه تقليدياً بحتاً : ولم يظهر الإله نفسه خصائص^(١٦) معينة . ولوحظت في العالم عادة أخرى ، كما قررت الاكتشافات وهي عادة دفن أجساد الأجداد مباشرة تحت المعبد الصغير الملحق بكل بيت خاص^(١٧) ، ولهذا ففي هذا المعبد العائلى ، قد يكون التبرجيل للأجداد مقروناً بعبادة إله العائلة الذى كان يجرس العائلة أحياناً كانوا أو أمواتاً ، والصلوات التى يؤمها رب البيت قد تؤدى بانتظام وتقدم القرابين عادة في صورة طعام ، ولكنه من الطريف حقاً أن أى معبد من هذه المعابد لا يحوى أى نقش أو أية علامة يمكن أن يستدل بها على اسم إله العائلة^(١٨) . وواضح أنه كان ينظر إليه على أنه قوة لاتعريف لها أكثر من كونه كإله للعائلة في الماضى والحاضر وفى المستقبل ، وتعتبر غير لازمة . أما عن كونه مقروناً بالعائلة فكان هو كل ما يهم ولو حدث ، وكما لو افترضنا ، أن هؤلاء الناس القدامى ، بإحساسهم الدينى الواضح ، حصلوا على مواساة حقيقية في بعض صور على الأقل من صور العبادة العديدة ، التى في تناول أيديهم لأمكننا أن نخلص إلى أن مثل هذه العواطف غالباً ما كانت تثار بصورة أكبر في المعبد العائلى عنها في المعبد العام .

وإله العائلة يعيش مع العائلة ويتنقل معها ولا يتخلى عنها في تقلباتها وصروفها . وهو الإله الواحد الذى لا يطرأ على شهرته أى تعديل إذا ما حلت الكوارث بالمجموعة الصغيرة ، وهو شديد الاقتران بحياتها منذ عدة أجيال . وبالنسبة لقبيلة من قبائل « العابيرو » مثل قبيلة

(١٦) ظل حظر تصوير الإله حظراً دائماً بين اليهود ، وقرأ اليهود ، بالمثل ، يوه Jehovah دائماً : أدوناي Adonai .

(١٧) وولى : إبراهيم ص ٢٢٠ .

(١٨) قارن ذلك بما كتبه مارتن بيوبر Martin Buber في كتابه « موسى Moses » (١٩٤٦) ص ٢٠٥ ، وإن كان

« بيوبر » يسير على نهج كاو فان Kaufmann في كتابه « تاريخ الديانة اليهودية History of the Hebrew Religion » ج ١ ص ٦٧٥ إذ يقول إن هذه الآلهة لم تعبد لها . وقد يبدو أن هذا لا يتفق ووجود المعابد التولية وقرابين الشكر .

إبراهيم ، قد يكون هذا الإله بلاشك أعز عندها عنه بالنسبة للعائلات الأكثر استقراراً ، ولكن حتى التشاحن مع « أور » وتأثر ألها بوفاة « تيراه » بدأ إبراهيم الفعل ، ربما في ومضة تبصر أو ربما الأمر بسيط جداً (والكتاب المقدس يرجح الأخير) أنه لم يعد باقياً سواء . وفي تحلى العائلة عن كافة الآلهة الأخرى يجب أن تسمح لنفسها بأن يجرسها الإله الذى صاحبها على الدوام حتى تلك اللحظة ، وعند ذلك الإدراك تكلم الرب .

وإذا سرنا على منوال ما اتبعناه في الفصل الأول عن ذكر بيان للديانة المصرية والفكر المصرى ، واتبعناه ببيان موجز عن الأفكار السائدة في بابل منذ أربعة آلاف سنة مضت ، لكان لا بد من التمشي مع ملاحظتنا الأولى ، أعنى أنه في دراسة فكر الشرق نعجز عن أن نفصل ، إن لم نعجز عن أن نميز ، الديانة عن الفلسفة . لقد كان هناك أحيانا اتجاه ، تختص به المدرسة العليا للنقد ، يوحى بأن الاثنين لا يمكن فحسب بل يجب أن يميزا إذا كان علينا أن نفصل ما كان « يفكر فيه فعلا » الإنسان القديم عن سلسلة « المعتقدات » التى لأسباب تركت لتفسر ، شغل بها نفسه . والطريقة التى تعد علمية أكثر في معالجتها للأمور هى التى تنظر إلى المعتقدات ذاتها على أنها « ما كان يفكر فيها فعلا » وتستقل إلى البحث عن كيف أن مثل هذه المعتقدات قد أصبحت مقبولة . وهذا هو التاريخ ، والباقي هو تحيز رقيق في صورة الانطباق العلمى . وفي محاولة تجريد العقيدة ، سواء كانت خارقة للطبيعة أو مجرد « مقدسة » ، كما لو كانت في دور الفيلاجية ينحى ويحصر فراشة الحقيقة ، في هذه المحاولة ، إلحاق أذى بالحالة الذهنية لأشخاص ليسوا بالضرورة لاعقلانيين أكثر من أنفسنا ، وجعل فهمنا لهم أكثر صعوبة مما يحتاج إليه الأمر . ومن ثم ، كانت محاولتنا أن نستنبط من الدليل المتوفر لنا ، فيم كان إبراهيم يفكر فيما يفعله ، وهو يحاول أن يوجد تقدماً في نظرة الإنسان للحياة .

وفي تعقب الإجراء الذى صار به إله العائلة عند إبراهيم « أسمى إله » لإسرائيل فيه إيضاح ، قبل كل شيء ، لأنه ليس هناك تناقض واضح بين أن يصبح إله خاص إلهاً للجميع ، إذا كانت مجموعة الشعب امتداداً فحسب ، كما في هذه الحالة ، لوحدة خاصة . لقد كانت عائلة إبراهيم بالفعل بطناً من البطون تطورت إلى قبيلة في الإجراء الطبيعى للحركة كوحدة عبر امتدادات شاسعة في الصحراء ، وبطبيعة الحال ، كان إبراهيم وأقاربه الأقربون لا يزالون يشكلون لوناً من نواة رئيسية ، كما كانت عادة الشيوخ ، الذين يشكلون بطناً من البطون الداخلية من ذات أنفسهم ، ولذلك نعرف في الأصحاح ١٤ من « سفر التكوين » أنه

من بين أتباع إبراهيم كان هناك عدد من « المتعاهدين » رجال من المحتمل أنهم انفقوا على أن يرتبطوا هم أنفسهم به بوصفه زعيماً طبيعياً. ومثل هؤلاء المشايخين الضالين ، الذين ارتبطوا فيما بينهم عرضياً قد قرروا في النهاية أن يتقاسموا مصيرهم مع الرئيس ، وكان ذلك من المسائل المألوفة في الحياة في الصحراء ، وحتى « الغريب داخل مسالكها » كان مباحا له في زمن موسى أن يتمتع بكل الامتيازات الاشتراكية ، مثل الراحة يوم السبت ، ولا بد أن تكون القبيلة متأهبة ضد أي هجوم ، « فلما سمع أبرام أن أخاه سُبى ، جر غلمانه التمرنين ولدان بيته ، ثلاثمائة وثمانية عشر ، وتبعهم إلى دان Dan (سفر التكوين الأصحاح ١٤ / آية ١٤) ومع كل معركة صحراوية كانت تقوى الوحدة القبلية ، وازدادت شهرة إبراهيم وعظم قدر إله إبراهيم^(١٩) .

وفي تصور إله العائلة عند إبراهيم قياسا على العائلة العصرية الصغيرة التي تخضع لظروف منزلية شبه منعزلة ، شراء بالتقسيم ، علاوات حكومية ، فيه رسم لصورة قبيحة غير صحيحة لحجمه وتعقده . لقد كان إله من مثل هذه الزمرة الشبيهة بـ «كرة الثلج» إله مجتمع بالفعل ، ومن ثم كان إلهاً له نفوذه ، يلجأ إليه الجميع . وكان الانتقال طبيعياً وحتيماً معاً ، وكان قبل كل شيء تاريخياً. وتصور كاتدرائيات أوروبا والأبرشيات في إنجلترا والمعابد والمخاض في أمريكا وأكواخ التبشير في أفريقيا وآسيا - تصور التخطيط الضخم لتلك العملية في زمانها .

إبراهيم حامل لواء الحضارة :

ليس هذا مجال الدخول في جدل إنجيلي لمناقشة الأهمية النسبية لقدم هذه الفقرة أو تلك من العهد القديم . وفي ضوء الاكتشافات الأثرية الحديثة فإن الموضوع له سحره الكبير ، ولكن هدفنا هو تتبع أفكار الإنسان الأولى عن الحياة والموت والخير والشر . وفي تتبعنا لهذا العمل يجب علينا أن نتقل إلى مظهر آخر من مظاهر شخصية إبراهيم التي كان القليل منها موضع ريب حتى مستهل القرن الحالي . باختصار ، يجب أن ندرس إبراهيم على أنه ناقل للحضارة في صورتي : أسطورة (مستخدمين تلك الكلمة في غير ما معنى من معاني التحقير) وقانون . لقد أوضح « وولي » أنه لا تكاد تبدأ قصة إبراهيم تتكشف حتى تدب الحياة في

(١٩) من المرجح أن إبراهيم لم يكن يرضى أن يتقبل أجوراً نظير المعونة العسكرية التي كان يقدمها (انظر سفر التكوين ، الأصحاح ١٤ ، آية ٢٣) فقال أبرام لملك سدوم رفعت يدي إلى الرب الإله العلى مالك السماء والأرض لا آخذن لاخيطة ولاشراك نعل ولا من كل ما هو لك .

الكتاب المقدس في الواقع ، إذ أن ما يسبق هذه القصة هو مجرد تاريخ ، مزيج من الأسطورة والتأمل التخيلي يطرحان معاً مع القليل من مراعاة الارتباط والقدر الكبير من هذه المادة يدين بأصله إلى المصادر السابقة للعبرانيين ، وحيثما تمكن البرهنة على أن مصدرها بابلياً صار محققاً وثابتاً ، فإن هذا يدفعنا حتماً إلى البحث عن كيف يمكن لمثل هذه المعلومات أن تنقل من حضارة إلى حضارة أخرى .

وتسجل الشقافات السبع المكتشفة في نينوى في سنة ١٨٥٤ يوماً بعد يوم أيام خلق العالم طبقاً للتقليد البابلي . وعلى أول شقافة من هذه الشقافات يروى كيف أن آبسو Apsu المحيط ، أبو كل الأشياء ، وتيامات Tiamat ، خيوس Chaos ، الأم ، امترجوا معاً في وقت :

لم يكن قد ظهر فيه أى حقل ولم يكن وجود المستنقعات
ولم يكن أحد من الآلهة قد خلق
ولم يكن من أحد قد اتخذ له اسماً ولم تكن المصائر قد تقررت ،
ثم خلق الآلهة وسط السماء .

ونتيجة لهذا الخصب الضخم ، بدأ النظام يتشكل في بطء عندما باشر الآلهة التحكم في مجالاتهم كل في اختصاصه . ولكن قبل إمكان القيام بمزيد من التقدم ، قررت « تيامات » فجأة أن تضع حداً لسلالتها فأغرقت كل الآلهة عدا واحداً هو ماردوك Marduk . وطبقاً لما جاء بالشقافة الرابعة ، « وقف ماردوك على أطراف » تيامات « الخلفية وهشم جميعها بعصاه التي لا ترحم » ، ثم بقصد جعلها إلى الأبد غير قادرة على الأذى « دبر خطة ماهرة ، قسمها مثلما تقسم سمكة منبسطة إلى نصفين » وبعد أن قتلها وقسمها « أقام بنصف منها غطاء للسماء » والنصف الآخر « نشره تحت قدميه ليشكل الأرض » ثم ، كما تروى الشقافة الخامسة ، استأنف عمله في ترتيب الكون :

أقام محطات للآلهة العظمى

النجوم وصورها (٢٠) ثبتها على شاكلة نجوم صور البروج Zodiac

ونظّم السنة وقسمها إلى أقسام

(٢٠) توجد هذه الفكرة أيضاً عند أفلاطون .

وحَدّد للأثني عشر شهراً ثلاثة نجوم...
وجعل إله القمر ينشر ضوءه بعيداً وجعل الليل من نصيبه .

وأخيراً لما قرّر أن يخلق الكائن الذي يجب ألا يتمتع بهذا العمل الهائل فحسب ، بل يقدم شكره للآلهة التي صاغته ودعمته ، انتقل ماردوك إلى خلق الإنسان . هذا الإنجاز هو ما احتوته الشقافة السادسة : « مما سأخذه من دمي ، ثم (ربما بمزجه بالأرض) سأصوغ العظام .. سأخلق الإنسان الذي سيعمر الأرض » .

وطبقاً للتقاليد البابلية ، كانت الحالة الأولى للجنس البشري بعيدة البعد كله عن البساطة والجمال . كان الإنسان مخلوقاً لم يثقل بعد تعليماً في فنون ومهارات الحياة . وتماثراً كالمصريين الذين كانت لهم وجهة نظر مماثلة إذ كانوا يعتبرون «توت» المعلم الأول للإنسان وبصورة خاصة مخترع الكتابة ، فكذلك عزا البابليون مقدرة الإنسان على أن يبقى نفسه في عالم عدواني ، إلى تعاليم مخلوق يدعى أوانيس Oannes وكان ضرباً من إنسان سمك هائل الجثة . وحتى لو صح هذا ، فإنه مادام الإنسان لم يبرهن على أنه مخلوق سهل الانقياد ، صممت الآلهة على محوه من على الأرض في الوقت المناسب . لقد هدد طوفان من حجم لم يسبق له مثيل ، يعم الكرة الأرضية بأسرها ، هدد ببناء كافة مخلوقات الطبيعة ، ولكن إيا Ea إله الحكمة التي استشارها ماردوك قبل خلقه للإنسان (لقد فتح فمه ووجه حديثه إلى «إيا» - الشقافة السادسة) يبدو أنها قد أسفت لقرار الإله ، لقد قررت أن تنقذ شخصاً يدعى شاماش - نايشتم Shamash-Napishtim وعائلته ، وكان قد بدأ يعمل في بناء سفينته تحت رعايتها .

ورويت قصة شاماش - نايشتم في ملحمة جديدة بالاعتبار ، دُوّنت على اثنتي عشرة شقافة وجدت في نفس المكتبة التي اكتشفت فيها قصة الخلق . هذه هي ملحمة جلجاميش Epic of Gilgamesh ، وهي قصيدة يعتقد بعض الخبراء أن تاريخها يرجع إلى وقت مبكر إلى سنة ٣٠٠٠ ق . م . وكان جلجاميش ملك يونيك Unek ، من سلالة شاماش - نايشتم التي تسرد مغامراته خلال القصيدة . وكما هو وارد ببيان الكتاب المقدس الذي نحن على علم به ، يرد ذكر أدق البيانات لأول مرة عن حجم السفينة التي كانت تحت التشييد . ويتكلم شاماش نايشتم بصيغة المتكلم فيقول :

في اليوم الخامس رسمت تصميمها
 وكان تخطيطها ١٢٠ ذراعاً ارتفاع كل جانب من جوانبها
 وتتطابق بـ ١٢٠ ذراعاً على كل حرف في سقفها ،
 لقد وضعتُ شكلها وسيجنها ،
 وشيدتها من ستة طوابق ،
 مقسماً إياها إلى سبعة أجزاء ...
 وطلبتها من الخارج بثلاثة معايير من القار
 كما طلبتها من الداخل بثلاثة معايير من القار

ولما أتممتُ صنع السفينة «أركبتُ فيها عائلتي وأقاربي ودواب وحيوانات الحقل» ، ولما
 «حان الوقت المحدد ، أرسل حاكم الظلمة وقت الأصيل مطراً غزيراً ، فدخلتُ السفينة
 وأغلقتُ بابي» ، واستمرت العاصفة لسبع ليال :

هبب الريح وعم الأرض الطوفان والعاصفة
 وعندما اقترب اليوم السابع ، إذا بالعاصفة والطوفان
 يتوقفان عن المعركة التي كانا يجاريان فيها كما لو كانا ينازلان جيشاً
 ثم سكت البحر وهدأ وتوقفت الريح العاصفة كما توقف الطوفان .
 ففتحتُ قمرتي وسقط ضوء النهار على وجهي .

ومالبثنا أن رأينا الأرض واستوت السفينة على جبل بلاد نيسير Nisir الذي ثبته وحال
 بينها وبين الحركة ، وعليه

أطلقتُ حمامة
 فتحركت الحمامة جيئة وذهاباً ،
 ولكن لم تجد مكاناً تستقر فيه ففعلت راجعة .

ثم جرب شاماش في أول الأمر عصفور الجنة ثم غراباً أسود ، ولما «شهد الأخير انحسار
 الماء اقترب وهو يخوض الماء وينتقن ، ولكنه لم يعد» ثم أصدر شاماش أمره بمغادرة السفينة

إلى البر وبعد أن عسكر على قمة الجبل ضحى بضحية وقدم قرباناً . وواضح أن انحسار الطوفان كان مرده إلى حقيقة أن الآلهة لما كانت قد عزمت على نحو الإنسان من على الأرض ، أدركت أنها بهذا لن تجد من يعبدها ومن ثم فستحرم من الذبائح التي تُحرق تعبدًا ، لأنه لما كان شاماش يعتبر واجبه الأول هو تقديم شكره « اشمست الآلهة طيب رائحتها وتجمعت الآلهة كالذباب حول من قدم الأضحية » .

ومما هو جدير بالملاحظة بالنسبة لهذه القصة التي نعرف أنها كانت مكتوبة بالفعل زمن إبراهيم هو : التشابه ليس فقط في مجملها بل أيضاً في عباراتها فعلا ، مع ما جاء في « سفر التكوين » الأصحاحات السابع والثامن والتاسع ، بل حتى تقديم الأضحية (الأصحاح التاسع^(٢١) آية ٢٠) صورة طبق الأصل مع تعليق أن الرب « تنسم رائحة الرضا » برغم أن المظهر اللاهوتي التام كان يستوعب إعادة النظر للتمشي مع مذهب التوحيد العبراني . أما عن أن « جبل بلاد نيسير » لا بد وأن تغير إلى آرات Ararat ، فهو أمر طبيعي لأن الأخير ربما كان أعلى قمة في « العالم » المعروف لقاطني فلسطين وشمال سوريا .

إذن فالقصة كما روتها ملحمة جلجامش ، التي تسجل عرضاً كيف أن شاماش - نايشتيم قد صار خالداً لمساعدته في الحفاظ على الإنسان وعلى الصور الأخرى من صور الحياة ، ليست مقالاً بحثاً في الكتابة الخيالية في حين أن القصة الأساسية للملحمة والتي ليس لدينا منها إلا جزء يسير ، تتناول مغامرات البطل جلجامش في الحب والمعركة والبحث عن الحقيقة ، وهي لا تزيد تماماً عن كونها عملاً من أعمال الخيال عن الأوديسا Odyssey أو الإلياذة Illiad . وتتماماً مثلما كانت « طروادة Troy » مكاناً واقعياً وحصارها واقعة تاريخية ، لذلك لدينا سبب للاعتقاد بأن الطوفان الذي جاء وصفه في الملحمة يصور برغم ما تضمن من غموض وتشويه ، حادثة تاريخية هامة . وفي أثناء التنقيبات في « أور » أفلح « وولى » وزملاؤه بإسقاطهم أعمدة عميقة في التربة ، في اكتشاف المستويات التي أعيد عليها بناء المدينة على التوالي في الأربعة آلاف سنة من تاريخها وقد وجد في مستوى معين أن المداميك يعترضها قدر ضخم من الغرين ، وهذا لا يمكن تفسيره إلا بإغارة لطوفان مدمر (وأبسط صورته تلك التي كانت مألوفة في هذه المنطقة كما في وادي النيل) لأنه وجدت تحت الرواسب مباشرة بقايا

(٢١) ورد تقديم الأضحية في الأصحاح الثامن آية ٢٠ من التوراة وليس في الأصحاح التاسع كما ذكر المؤلف ،

(المترجم) .

أخرى في مداميك مماثلة لتلك المداميك الأقرب للسطح. وقد وجه «وولي» الأنظار أيضاً إلى صدق الكثير من اللون المحلي للقصة : الضحالة النسبية للطوفان ، المألوفة جداً والمقبولة في أوقات أخرى ، وجلفطة السفينة بالقار ، إنتاج محلي ، ثبتت فائدته ، وما إلى ذلك . ولسنا في حاجة إلى افتراض أن هذا الطوفان ، برغم أنه من المحتمل جداً أن يكون هو الطوفان The Flood الوارد ذكره في الكتب المقدسة ، كان الأول من نوعه : ولقد صورت مثل هذه الكوارث تهديداً متكرراً للحدث لبلد يعتمد في خصوبته على أحسن نظام معقد وضعه الإنسان للرى ، ولازالت آثاره باقية في أجزاء كثيرة من العراق الحديث .

وفي أسطورة الخلق The Creation Myth ، نجد شيئاً مختلفاً تماماً الاختلاف ، فهذه ليست قصة حادثة تاريخية هامة ، بل مجرد قصة رمزية . وكقصة رمزية من المسلم به أنها تفوق «تمثيلية منف» في عدم نضجها ، بانحرافها الملحوظ إلى الميتافيزيقا ، ولكن القارئ سيلاحظ فيها بلاشك وميضاً ؛ وإن كان خافتاً ، لشيء أكثر عمقا ، لشيء يرفعها عن أن تكون مجرد أسطورة مثيرة . كان كل من «تيامات» و«آبسو» وحشين ، وكانت نتيجة اتحادهما تشبه إلى حد كبير مولد وحش ، حتى إن الأم المضطربة تُستحث لتقضى عليه بدافع الكراهية الذاتية ، وهي بدورها يقتلها بلاشفقة «ماردوك» الذي كان هو نفسه وحشاً من الوحوش . وقبل أن يخلق «ماردوك» الإنسان لا يستشير ؛ مع ذلك ، وحشاً مثله ، بل يستشير الإلهة «ايا» ، التي هي تجسيد للحكمة . وكانت «ايا» بالمثل هي التي لاحظت قرب عودة الفوضى ، فتشجع من أجل الإنسان ، وتضمن بقاءه . استناداً إلى هؤلاء الفلاسفة الشعراء الأولين . إذن ، كان لوجود الإنسان وبقائه شيء له صلة بقوة الذكاء والفتنة التي يمكن مقارنتها بـ«ماعت Maat» عند المصريين وبالـ«طاو Tao» عند الصينيين وبـ«لوجوس Logos» عند الإغريق : قوة في صراع دائم مع قوى الشغب والبربرية والفوضى .

هذا الإدراك للعقيدة المقدسة التي تمارس عملها مع كل من العالم والإنسان ، واضح في أجزاء أخرى من ملحمة جلجاميش أنه مغلف ، كما هو حال الشعر ، بكثير من الأوهام المفرطة والمغامرات الغريبة الشكل . وفي ختام القطعة الأثرية ينساق جلجاميش في رثائه لوفاة صديقه «أنجيدو Engidu» إلى التفكير في طبيعة الحياة والموت . وبعد البحث والتشاور في الأمر مع شاماش - نايشتيم ، سلفه الخالد ، يقرر في النهاية أن يسعى إلى لقاء شخصي مع «أنجيدو» ، وبرغم أن هذا الإجراء لا بد وأن يستلزم خروج الأخير من العالم السفلي ، يرجو جلجاميش في

حجاسة أن تحقق له الآلهة المعنية طلبه ، وأخيراً يظهر «أنجيدو» . وعندما يسأله جلجاميش أن يكشف له عن أسرار الموت يجيب ، مع ذلك قائلاً : «لوقلت لك ما رأيته ، لتملكك الفزع والجزع وغشى عليك» ، فكان جواب جلجاميش الذي ينهى في الواقع هذه القطعة الأثرية . هو ما يلي : «برغم أنه قد يملكني الفزع والجزع وقد يغشى عليّ ، فع ذلك خبرني» . هذه الروح العنيدة للبحث واضحة في قصة شعبية عمرها خمسة آلاف سنة ، ولعلها هي القوة الوحيدة القادرة على حمل الإنسان خلال خمسة آلاف سنة التالية ، مالم يستطع في الوقت المناسب أن يميّط اللثام عن أسرار طبيعة فنائه الشخصى .

ويمكننا أن نسأل الآن : متى علم العبرانيون لأول مرة بهذه الأساطير ؟ ألم يكن ذلك خلال أسرههم الذي يرجع تاريخه إلى حوالى ٥٨٦ - ٥٣٨ ق. م. ؟ كثيراً ما ظُن ذلك . ولكن هناك عدداً من الأسباب تصرف النظر عن هذا الرأى ؛ فنحن نعلم مما جاء في الكتاب المقدس - وقد نفترض في أية حالة - أن السبي البابلي كان زمن أعمق بحث في الذات بضمير حى ، زمن الدعوة إلى العقائد الأساسية للإيمان . لقد كان هناك اتجاه واضح نحو التراضى مع الحكام بل حتى إهمال العبارة التقليدية . وفي مثل هذا الوقت لا بد وأن جامعى وحافظى القصص المقدس قد اتخذوا إجراءات حتى لا يُسجل شيء إلا المادة الصحيحة والمعتمدة . وفي الوقت الذى من المحتمل جداً أن يكونوا قد نقحوا وأعادوا كتابة قصة الخلق والطوفان ، فإنه لا يمتثل أن يكونوا قد اختاروا تلك الآونة بالذات ليضمّنوا مثل هذه القصص من الخارج . ونظراً لعدم شمول التقاليد العبرانية تماماً لهذه القصص ، فلربما كانت الشعبية المعاصرة لمثل هذه القصص في صورتها الأصلية سبباً في صرف النظر عنها بدلاً من تقبلها . وحقيقة أنها كانت متضمنة العهد القديم بالمرّة ، توحى بأنها كانت بالفعل جزءاً من الكتابات المقدسة التقليدية . وينادى علماء الكتاب المقدس بأن الكتب الأولى للكتاب المقدس قامت على مصادر لا يرجع تاريخها فحسب إلى وقت مبكر مثل سنة ١٠٠٠ - ٩٠٠ ق. م. ، بل تصور أيضاً أول تسجيل مدون لتقليد شفوى أعظم قدماً ، وهذه المصادر ، وهى ثلاثة في عددها ، معروفة بأنها مصادر : E, J, P . ولا يهمننا المصدر P كثيراً ، وهو اختزال لعبارة Priest's Code لأنه يشكل نوعاً من دستور الكاهن ، مع تفاصيل لقانون الطقوس والقانون الكنسى كما كان يمارس في نهاية السبي البابلي . أما المصدران الآخران ، فيميز أحدهما عن الآخر بالأسماء المختلفة التى يطلقها على الإله : فثلاً المصدر J يدعوه يوهه Yahve والمصدر E

يدعوه إيلوهم Elohim وهى كلمة فى صيغة الجمع . وكلا المصدرين يمثلان معلومات عن التاريخ العبرى والديانة العبرية من وجهة نظر ما يمكن أن ندعوه الرجل العادى . ولما كان كل من المصدرين E و J يحويان ترجحات ممتازة لقصى الخلق والطوفان ، ولما كان يظن أن كليهما يرجع تاريخهما إلى فترة سابقة للننى البابلى (وهذا ينطبق فعلاً بالنسبة للمصدر J ، فى رأى معظم العلماء) فإن المسألة يمكن اعتبارها محققة^(٢٢) .

إن ما يمكن أن ندعيه بعد ذلك ، برغم أنه ليس بنفس القوة كدليل ، هو أن هذه القصص الفريدة كانت من بين عناصر التقاليد السومرية والبابلية التى جاء بها إبراهيم عليه السلام وأتباعه إلى فلسطين . وتوجد هناك ، وهو من محاسن الصدق ، شقافة كسبت باللغة الحرانية ، التى كان يتحدث بها فى حران ، تسجل رواية لقصة الطوفان فيها البطل لا يدعى شامش - نابيشتم ، بل يدعى ناح - موليت Nab-Molet إذن فاسم «نوح Noah» الذى لا يحمل أى شبه لاسم آخر فى الكتاب المقدس ، قد يكون حقيقة مشتقاً على الأقل من المقطع الأول من الاسم الحرانى^(٢٣) . ونحن لدينا هنا على الأقل برهان على أن هذه القصة كانت تدور فى مكان لسيدنا إبراهيم وعائلته علاقة وثيقة به لعدة سنين ، كما أنه ، على هذا الأساس لن يكون إقحام اسم آارات - أقرب جبل عال بعد قم طوروس - من الصعب تفسيره .

الدستور وكتاب العهد :

لقد تحدثنا عن إبراهيم عليه السلام على أنه ناقل لبعض الأساطير العالمية العظمى ، وعلمنا الآن أن نتحدث عنه على أنه ناقل لبعض المبادئ التشريعية العظمى فى التاريخ . لقد شكل دستور «حمورابى» ، كما سبق أن أشرنا . تجميعاً لمختلف الدساتير القانونية أو العادات المعمول بها بين الناس ، الذين أراد الملك البابلى العظيم ، بعد إخضاعهم ، أن يوحدهم . ولا بد أن عملية التنسيق والمقابلة قد شغلت اهتمام عدد كبير من الخبراء الذين كانوا يعملون أولاً فى الميدان وأخيراً فى مجموعات . وحيثما يتحدث العالم القديم عن إنجاز مرده إلى شخص واحد ، فإنه قد يساورنا الشك فى أنه ربما كان عملاً موحداً لعدد من الخبراء المساعدين .

(٢٢) لقد كان فصل البيانات الثلاث من المادة الموجودة نصراً للدراسة العلمية التحليلية .

(٢٣) انظر للقال الذى نشر للأب باروز Father Burrows ، فى مجلة الجمعية الملكية الآسيوية

ويمثل دستور «حمورابي» انتصاراً عظيماً للعمل الجماعي . ومن بين النظم التشريعية التي لا بد أن وجه إليها اهتمام خاص كان النظام التشريعي لسومر ، التي بلغ فيها القانون والتقاضى ، بالفعل ، درجة عالية من التطور والتعقيد ، وكانت كل دعوى ونقض لها مسجلة بكل دقة على الشقافات . وكان كل إجراء قانوني قائماً على أساس دقيق . والآن ، عندما أعيد اكتشاف دستور «حمورابي» وترجم في مستهل القرن الحالى ، صار واضحاً على الفور مدى التشابه غير العادى بين نصوصه ونصوص الدستور الموسوى أو كتاب العهد . ولقد كان كثير من بنوده الفردية متطابقة في حين أن صيغة عدد كبير غيرها متشابهة ، ونظراً للتشهير الذى لحق بالقانون الموسوى « العين بالعين والسن بالسن » الذى ميزه المسيح علانية باعتبار أنه يلخص روح التشريع القديم ، فلعله من الطريف أن نقتبس الترجمة الحرفية لقانون «حمورابي» عن الموضوع : «لوقفاً شخص عين شخص آخر فستفقا عينه ، ولو كسر إنسان سناً لإنسان آخر من نفس مكانته فستكسر له سنه » ، أما عن أن الدستور الموسوى لا يمكن أن يدين بشيء لقانون «حمورابي» من الناحية الشعائرية فإنه لا يكاد يكون أمراً عجبياً ، إذ من الناحية الاجتماعية يلاحظ أن التشابه أكثر وضوحاً .

هذه المشابهات التي لا نزاع فيها تقضى على وجهة النظر القائلة بأن الدستور ابتدعه موسى ، إذ لم «يتدع» أى إنسان دستوراً تشريعياً قط ، «وموسى» نفسه لا بد وأن واجه قدراً كبيراً من الصعاب في تنسيق القوانين التي كان معمولاً بها فقط بين القبائل الخاضعة لزعامته ولم يتوقف عمله هناك ، كما لم يكن مثل هذا التنسيق أهم مظهر له . لقد كان ما يسعى إلى القيام به بصورة خاصة هو أن يذكر أتباعه بتقاليدهم القديمة ، والتي كان بقاؤها مدة طويلة في مصر هداية له (٢٤) . وكان هو نفسه قد استطاب حياة الصحراء وسط أهل مدين ، ولهذا فلقد كانت معظم جهوده موجهة إلى إحياء موآئم للظروف الجديدة ، للعادات التشريعية لتلك الفترة في التاريخ العبرى التي كانت فيها القبائل ، كما كانت وقتها ، في انطلاقتها . وخلال رحلته من «أور» إلى «حران» ، ومن «حران» إلى «فلسطين» ، صان «إبراهيم» عليه السلام النظام طبقاً للعادات التشريعية التي نشىء عليها . والتغيرات الموائمة لحياة الصحراء لا بد أن أدخلت بطبيعة الحال : ومع ذلك فهناك في العهد القديم دليل ثابت على حقيقة أن قانون

(٢٤) انظر بصفة خاصة كتاب مارتن بيورر وعنوانه «موسى» Martin Buber's Moses الفصل الذى أورده

اللبت ، ويجب أن نذكر بالمثل أن الإقامة في مصر ربما اشترت ما يقرب من ٤٠٠ سنة .

البدو (الذى كانت ملتزمة به عائلة إبراهيم) كان في الواقع قانون سومر^(٢٥) ، وبمعنى آخر ، إذا كان موسى عليه السلام قد خطط دستوره للقوانين قبل أن يبلغ أرض الميعاد ، فهو - كإنسان متبحر في حكمة المصريين - من المحتمل أنه لم يكن في استطاعته أن يجمع كتاب العهد ، على ما جاء وضعه في « سفر الخروج Exodus » بلغة تذكرنا بلغة قوانين « حمورابي » ، وإن كان الأقرب إلى الاحتمال أنه قد استهواه أن يدخل عناصر من القانون المصري^(٢٦) . وفي حسن تفهيم القبائل بإله إبراهيم عليه السلام - وهي مهمة ، يرغم معجزات حفاظهم على عبادتهم التي سبق أن خبروها ، يبدو أن موسى قد وجد في ذلك صعوبة شديدة ، إذا حكمنا على ذلك من ميلهم الفطري إلى عبادة الأوثان - ولعل موسى قد لجأ إلى إحياء ما يمكن إحيائه من القانون الذي واءم إبراهيم كل حياته به^(٢٧) . والقانون المقصود هو قانون حمورابي . ويرغم أن دستور حمورابي ظلت له السيادة في بلاد ما بين النهرين لعدة قرون بعد وفاة موسى ، فإننا لا نستطيع أن نتصور أن العبرانيين استوعبوه في فترة متأخرة . وكما في حالة أسطورتى الخلق والطوفان ، كان اقتباس متأخر لا يتفق ورغبة المؤلفين الوريين في الإبقاء على - ولا نقول فصل - التقاليد الكنسية الصحيحة من تلك التي يحتمل أن تشكل خطراً مباشراً على نقيتها^(٢٨) .

وفي مستهل هذا الفصل أوضحنا أنه لما صارت سيادة حمورابي وخلفائه كاملة على بابل ، أفسحت الثقافة السومرية القديمة المجال لثقافة الشعب الغازي ، ومن ثم فقد اتخذت لغة سومر تدريجياً وضع اللغة الكلاسيكية وكانت تدرس في المدارس لقيمتها « الثقافية » كما ندرس نحن اليونانية واللاتينية ، ولكنها ظلت حية في مجال واحد فقط .

فلم تكن الصلوات في المعابد في بابل تؤدي باللغة المعاصرة بل باللغة السومرية : تجربة مماثلة لتلك التي انتهجتها الكنيسة الرومانية في أداء « القداس » ، وأيضاً تجربة استخدام المسلمين

(٢٥) انظر وولي : ابراهيم ص ١٨٣ .

(٢٦) نفس الحججة تصرف النظر عن الرأي القائل بأن العبرانيين اقتبسوا قانونهم من سكان فلسطين الذين استقروا بينهم ، وقد ظلت فلسطين لمدة طويلة جزءاً من الإمبراطورية المصرية .

(٢٧) فيما يتصل بدليل آخر على أن إبراهيم كان يعمل وفقاً لقانون سومر ، وبصورة خاصة في حالة هاجر ، انظر وولي في كتابه « ابراهيم » . الفصل الخامس .

(٢٨) كمثال على تحريم كل ما هو أكثر ضرورة طبقاً لتأثير التجربة الأجنبية هو ماله صلة بالصور . وكانت التجربة المصرية في تصويرهم آلهتهم لا بد وأنها كانت ذات إغراء دائم عند العبرانيين ، ولهذا كانت الوصية الثانية من الوصايا العشر Decalogue منصباً حظراً على التصاوير .

للغة العربية القديمة في الشعائر الدينية . ومثل هذا الأدب الديني السومري ، كالذي بقى ، يوحى بأنه لا بد أن أساسه في بادئ الأمر كان ضخماً ، ربما كان في ضخامته مماثلاً لضخامة أدب الهندوس ، الذين يعدون أعظم الشعوب تديناً من حيث الإنتاج الكمي . والكثير من الكتابات السومرية الدينية مكون من قصص عن السحر وفصول عن الجن والشياطين عثر عليها في مكتبة آشوربانيبال . ومن كل ما تبقى لنا من أدب ، ليس هناك أكثر طرافة من سلسلة قصائد أحسن ما توصف به أنها مزامير توبة . هذه المزامير المؤلفة باللغة السومرية ، كما كان متوقفاً أن تكون ، يمكن أن تدخل تماماً في القانون المسيحي الإنجيلي دون أن يثار أدنى شك حول أصلها ، وهي في صياغتها توضح أن «توازي الأعداد» شيء غريب على علم كتابة الأناشيد Hymnography الذي يبدو أنه استخدم لأول مرة في الأناشيد التي وردت في النصوص الأولى للهرم . وينادى «بريستيد» بأن العبرانيين قد نقلوا هذا التكنيك (الذي يوحى بأسلوب ترتيل في الأداء) رأساً عن المصريين . ومن الممكن بالمثل أن يكون العبرانيون قد أخذوه عن البابليين ، الذين كان مزاجهم الديني أكثر قرباً من روحهم . ويرغم أنه ليست كل هذه المزامير مزامير توبة بكل دقة ، فإن موضوعات : الذلة أمام الله وثقل الأوزار هي تلك التي تلهم مؤلف سفر المزامير لأن يكون أكثر بلاغة في تعبيره :

الجنس البشرى ضال ولا رأى عنده :

من كل من هم أحياء ، من يعرف أى شيء ؟ . . .

يا إلهي ، لا تتخلى عن عبدك :

لقد تردى في الوحل ، فخذ بيده !

إن الخطيئة التي اقترقتها ، أرجو أن تغفرها لي !

والإثم الذي اقترفته ، دع الريح تذروه !

اللهم مزق خطاياي كما يتمزق الثوب !

يا إلهي ، إن آثامي سبعة أمثال السبعة . . إلخ .

مثل هذه الأقوال ، حتى في ترجمتها المبسطة ، يلاحظ أنها تختلف أساساً عن أوزان التوبة «الساخرة» من «كتاب الموتى» ، فالصيغة الغالبة هي صيغة العذاب الروحي . وباستثناء أمثلة نادرة ، يعد «كتاب الموتى» مجموعة من الدجل الديني ، مثل قواعد تنفيذ الجزاءات السماوية .

ومما نعرفه عن الحياة الاجتماعية في بابل ، يمكننا أن نتأكد مرة ثانية من نقطة أخرى : فهذه المزامير لم تكن فقط مجالاً شفوياً غير مشحون بالعواطف الفردية . وقد بقيت لنا «فهارس الخطيئة» البابلية التي كان يطابق عليها الفرد المتعبد ظروفه الروحية بانتظام . وفضلاً عن هذا ، فقد كان موضوع التوبة يتقل إلى الحياة اليومية ، وكانت تخصص مثلاً أيام معينة على مدار السنة لأغراض التأمل في التوبة . وكانت كلمة شابأتو Shabattu التي تطلق على مثل هذه الأيام معينة ، كانت تطلق أيضاً على منتصف الشهر . وهناك أربعة أيام أخرى هي السابع والرابع عشر والحادي والعشرين والثامن والعشرين ، بمعنى أن الفاصل بين كل منها سبعة أيام^(٢٩) ، وكانت تعتبر أيام لعنة Dies Irae ، وفيها كان كبار الموظفين ابتداء من الملك إلى من هم دونه ، يكفون عن مباشرة أعمالهم العادية . وكلمة «شابأتو» التي أخذ منها «السبت Sabbath» تحمل معنى «راحة البال» . والفكرة حية ، مع اختلاف في التوجيه ، في عبارة في «سفر التكوين» «فاستراح الله في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل ، وبارك الله اليوم السابع وقدهس^(٣٠)» ؛ وفي «سفر الخروج» (الأصحاح ٣١ / آية ١٧) نجد عبارة توحى بأنه بعد أن خلق الله العالم «استراح وسنس» . و«راحة البال» قد تعني أيضاً استرضاء غضب الآلهة الذي يتعرض له المرء بانتظام ، كما لو كانت تتذكر كل مرة أو تؤنب نفسها على خلق الإنسان . وفي نعتهم لكلمة «شابأتو» ، إنجى العبرانيون إلى تطبيقها تمام التطبيق على تلك الأيام من الأسبوع التي اعتبرها البابليون أيام «لعنة» . ومن الأهمية بمكان أن نذكر أن المفهوم العبري للسبت في مجموعه أكثر هدوءاً من المفهوم البابلي ؛ وهذا قد يوضح لماذا لجأوا (ربما لاشعورياً) ، عند البحث عن كلمة له ، إلى ذلك الاسم الذي أطلق في بابل على اليوم المقدس بصورة خاصة ، لأن الاحتفال بمنتصف الشهر كان احتفالاً ببلد التمام ، اليوم الذي كانت تظهر فيه «نانار» أو «تيراه» في أسمى اكتمال للجمال .

وسواء كان في استطاعتنا أن نتبصر تبصراً كافياً في السيكولوجية البابلية لاكتشاف لماذا ومنذ متى تعتبر أيام معينة ذات فال سيئ (أو «تعسة» إذا استخدمنا الكلمة العصرية المراوغة) ؛ فإن هذا أمر أكثر من مريب . وعلى شاكلة كثير من الشعوب الأخرى . كان

(٢٩) انظر أيضاً عبارة «السنة السبئية Sabbatical Year» ويمكننا أن نجد أيضاً بقية من نفس الفكرة في عبارة

«السما السابعة» Seventh Heaven .

(٣٠) «سفر التكوين» ، الأصحاح الثاني ، الآيات : ٢ ، ٣ (الترجم) .

البابليون يعتبرون السبعة رقماً مقدساً . ولو كانوا ، كما هو محتمل ، أول من آمن بان العالم قد خلق في سبعة أيام ، أي كانوا يعنون بـ «يوم» فإن فصل كل سبع يوم في الشهر على أنه مناسبة للإذلال القومي ، يوحى بالتذكرة بمحادثه ذات مغزى كوفى . كما أن هذه النظرية قد لا تبطل إذا ما ثبت ، كما كان يشار إلى ذلك كثيراً ، أن فكرة خلق العالم في سبعة أيام كانت بالأحرى نتيجة أكثر منها سبباً للتوقير العام لهذا الرقم .

ولما كان البابليون هم ، بقدر ما نعلم ، مبتدعى الشهر القمري المكون من ثمانية وعشرين يوماً^(٣١) ، فإنه يبدو واضحاً أن الأيام السود كانت تلك الأيام التي لها علاقة بأوجه القمر . ولكن لا بد وأن نحتاج إلى سبر أغوار تفكيرهم كما نجحنا في سبر أغوار أطلال منازلهم ، بقصد فهم السبب الذي من أجله صمموا على تشكيل حياتهم وفقاً لمثل هذه الفترات من التقريع الذاتي^(٣٢) . ولربما كان مثل هذا الاتجاه نتيجة زيادة صرامة العادة التي يبدو أنها تلقى جواً من الوقار على ما لم تعد ، أو تكاد لم تعد تفهمه . وهناك أشخاص معينون ، في إنجلترا على الأقل ، لا يرضون عن الاتجاه نحو يوم «الأحد الأوربي» ، ناسين أنه كان هناك بالمثل اتجاه نحو شيء ابتعد بروحه ، بصورة مماثلة ، عن يوم «الأحد» الأصلي ، أعنى نوعاً من الاحتفال الحزين الذي يحتفل به أحياناً في يوم السبت الأسكتلندي . ومن ثم ، فإن أيام الإذلال البابلية يمكن أن تكون إلى حد كبير إنحرفاً عن الإحتفالات القمرية الأولى مثل السبت العبري في العهد الجديد (الإنجيل) - الذي أتى اليهود المسيح لنقضه ومخالفته له - كان انحرافاً عن السبت الأصلي الذي أدخله أو أحياه موسى عليه السلام ، لأنه لا حيلة لنا في ملاحظة غرابة الموقف الذي جاء وصفه في إنجيل يوحنا ، الأصحاح الخامس ، إذ جاء به ، فيما يتصل بيره المرضى : أنه يبدو أن كان مسموحاً للملاك بأن «يحرك الماء» ، فإنه تجديد من المسيح أن يحرك الماء يوم سبت .

وتماماً مثلما هو من المستحيل ابتداء دستور تشريعي ، فإنه من المستحيل كذلك ابتداء ديانة . إننا نسمع باستمرار عن ديانات جديدة ، خاصة في أقطار مثل الولايات المتحدة التي

(٣١) كما كانوا أول من قسم النهار إلى اثني عشرة ساعة والساعة إلى ستين دقيقة ، وإن كانوا قد قاموا أيضاً بتجارب لتقسيم الساعة إلى ثلاثين دقيقة .

(٣٢) يذكر ميشيا إيلباد Micea Eliade في كتابه أسطورة العودة الأبدية Le Mythe de L'Éternel Retour ما يلي : « لقد تطلب بناء الشعوب التكرار من حين لآخر للأفعال الخاصة بخلق وتكوين العالم ، وكل تضحية تكرر التضحية الأولى وما يتوافق معها » .

يوجد بها قدر كبير من النشاط العقلي النسائي غير المستنفد ، ولكن مثل هذه الأناجيل من المؤكد أنها تظهر بالفحص خصائص مألوفة بل حتى عادية . وقد يقرر إنسان ما أن يعبد لونا من الألوان ، ولكن حدث ذلك منذ عهد قديم جداً في سوريا ، حيث توجد بها طائفة تعبد اللون الأزرق حتى الآن : أو قد يعبد إنسان ما نفسه ، وهذا الإجراء قام به إمبراطور روماني . وفي بياننا عن إبراهيم ، لو أننا أعطينا الانطباع بأنه هو شخصياً قد ابتدع العقيدة التي حملت فيها بعد في الألفية سنة التالية اسم الديانة اليهودية ، لكننا قد تخلينا عن غرضنا ، ولكنه لم يفعل شيئاً من هذا القبيل . إن الأشخاص الذين تدعوهم مؤسسي ديانات لا يهتمهم في الواقع تأسيس دين بقدر رغبتهم في إقامة عالم إنساني يؤمن بالحق المقدس : لتوحيد طريق الأرض مع طريق السماء^(٣٣) . هذه عبارة قصد أن تكون أهميتها غامضة في العالم الغربي ، لأسباب أشرنا إليها في الفصل الأول من هذا الكتاب ؛ هذه العبارة مازالت تمثل الحقيقة الناصعة عن العالم الشرقي ، المفتاح لعقليته الروحية . وباستثناء أمثلة نادرة جداً ، فإن الفكر الشرقي لا يجادل حول وجود مجال مقدس مثل هذا المجال مسلم به كحقيقة . وإذا كان هناك جدل بالمرّة فهو يدور حول الدرجة التي يعجز فيها العالم الطبيعي أو العالم المادي في هذا المجال فيما له صلة بالحقيقة والواقع .

وفي ضوء هذه الاعتبارات ، فإنه لا يقل تضليلاً أن يوصف موسى بأنه المؤسس الحقيقي للديانة اليهودية عن أن يوصف إبراهيم بذلك ؛ وعلى شاكلة زارادشت Zoroaster أو بوذا Buddha ، انشغل إبراهيم وموسى في إقامة أو إعادة قيام « الصلة المقدسة » ، والصلة في كلتا حالتها ، كانت تشمل أيضاً صلة بالماضي . لقد ابتدعا ليتوليا الصيانة معاً : يصون أحدهما عائلته ويصون الآخر قبيلته . هذا هو تفسير ما يسمى باسم العهود (أو بيرث Berith) ، التي ذكرت الروايات أن إبراهيم وموسى ومن بعدهما يشوع Josiah قد اتفقوا عليها مع يهوه Yahve . ومثل هذه العهود توصف أحياناً بأنها مماثلة للارتباطات أو حتى الاتفاقيات السياسية . وتحمر اليهود أخيراً من سيطرة فرعون . وفي الصحراء بدءوا في إظهار ميل نحو الفوضى ، كما يميل الناس لأن يفعلوا وقد تحرروا فجأة من العسف السياسي . والصورة الأخرى للحكم التي توفرت لهم كانت صورة حكم المهائم في الصحراء البدوي الذي سبق أن

(٣٣) انظر مارتن بيور في كتابه « موسى » (طبعة ١٩٤٦) ص ٨٢ .

التقوا به في مناوشاتهم مع عماليق Amalekites ، الذي كان يقف موقف المدافع كلما رفع موسى يده (سفر الخروج ، الأصحاح ١٧/آية ٨) .

كان هدف التعهد هو توكيد نفوذ صورة من الحكم مختلفة ، حكم يهوه نفسه . وكان التعهد في مظهر من مظاهره هو طريقة إقامة تلك العلاقة الدائمة بين الإله والإنسان التي ورد ذكرها لأول مرة في «سفر التكوين» بعد بقاء نوح ، والتي كان رمزها القوس في السحب . وإذا احتاج التعهد فيما بعد إلى أن يجدد ، كما كان غالب حاله ، فلقد كان مرد ذلك إلى فشل الإنسان المتكرر في إدراك ما تضمنته مثل هذه العلاقة ؛ ومثل هذا التعهد البشري - المقدس لم يكن تعهداً فريداً . وكلما زادت دراستنا للثقافة القديمة ، زاد اكتشافنا لأن العهود بين الإنسان والإله كانت تشكل جانباً من علم الأساطير التقليدي للسلاسل القديمة . ويمكن أن يقوم ارتباط مع الشيطان أيضاً ، ومع ذلك ، فعلينا أن نرى ما إذا لم يكن الارتباط العصري للعالم بالعلوم والتكنولوجيا من هذا اللون من الارتباط الشيطاني (٣٤) .

ولا يمكن لأية دراسة للمفاهيم الأولى للإنسان عن الخير والشر أن تنكر في مناقشة تاريخ إسرائيل (٣٥) ، ميلاً في محاورات معينة إلى انتقاص التبصر الروحي المعزى إلى يهود العهد القديم . وفي الفلسفة لا نستطيع أن نستمر على الصعوبات ولا أن نتجاهل النقد ؛ إذ يجب أن تواجه هذه الأمور في حزم . لقد قيل إن «يهوه» بدلاً من أن يكون إلهاً غير مرئي وغير ظاهر ، وهو الذي كشف لأول مرة عن شخصيته الحقيقية لموسى عليه السلام ، كان في الحقيقة إلهاً معروفاً تمام المعرفة في المنطقة التي تم لقاءه فيها لأول مرة . وشبه جزيرة سيناء تقدم دليلاً ، في الواقع ، على نشاط بركاني حديث العهد ، من وجهة النظر الجيولوجية . ولم يكن هناك مفر من أن مثل هذه الظواهر كانت سبباً في ظهور أفكار عن وجود أرواح أو آلهة محلية . وهناك ادعاء بأن «يهوه» كان إله النار أو إله البراكين ، وأن أول لقاء حقيقي بين موسى ويهوه كان على الجبل الذي كان يقيم فيه بصفة دائمة .

وهذه النظرية مقبولة ظاهرياً إلى أقصى درجة ، حتى لو كانت حقيقية فهي ليست

(٣٤) ما هو جدير بالملاحظة أن أبرز الشخصيات في التوراة ، لا تختلط بالآلهة . والإنسانية والقسامية في انفصال دائم ، وما ورد في الكتاب المقدس من إشارة إلى أنه : وكان في الأرض طفاة في تلك الأيام (سفر التكوين . الأصحاح السادس ، آية ٤) واضح أنها ملسوسة .

(٣٥) إسرائيل معناها ، حكم الله ، ولاحظ أيضاً أن كلمة الإسلام تعني الاستسلام لله (تعليق المؤلف) ؛ ولكن حقيقة الأمر هي أن كلمة الإسلام تعني التسليم (أي الإيمان) بكل ما أنزله الله من شعائر في القرآن الكريم (المترجم) .

بالضرورة مضرّة . وتسمية إله من الآلهة قد تكون في الأصل عرضية أو دون الغرض ، مثل تسمية شخص من الأشخاص ، برغم أنه من المسلم به أن هذا الإجراء ليس مرجحاً بين الناس الذين كان في نظرهم أن التسمية أمر خطير ، ولكن ، بقدر ما نعلم ، فإن اسم «يهوه» لا ارتباط له بأى إله مكرّم على سيناء^(٣٧) ، وعلى شاكلة معظم الأقاليم البركانية يمكن لسيناء أن تفخر بإله للبراكين ، وكان من المفروض أن مثل هذا الإله يتلقى ولاء السكان المحليين ، ولم يكن العبرانيون سكاناً محليين ولم يكونوا ، بقدر ماتاولناه من بحث للموضوع ، يتطلعون إلى «يهوه» على أنه إله له «ارتباط» بهم ، فلقد كان يقيم في سيناء حيناً ، وقيم حيناً آخر في عليقة موسى Burning Bush التي لم تكن لتنفى نظراً لإقامته المؤقتة بها - وإن كان في الواقع يقيم حيناً في عين ماء في الصحراء اكتشفته «هاجر» زوجة إبراهيم «سفر التكوين» الاصحاح ١٦ آيات ١٣،٧ . وهذا التخصيص المؤقت للأشياء الطبيعية برهن على أنه لم تكن له صلة قرابة ، إلى حد كبير ، بأهله الطبيعية العاديين ، الذين كان جوهرهم البقاء في مكان واحد ، نظراً لاختلافه المطلق عنهم . وإذا تطلعنا إلى الأوضاع على طول الخط ، كما كان حالها ، وجدنا أنه كان يسخر من ثباتهم .

ولو كان جبل سيناء قد آوى إلهاً ، كما سبق أن أشرنا فما اسم الإله ؟ لاعلم لنا ، ولكننا نعرف أن قبيلة تدعى الكينييين Kenites كانت تقطن هذه المنطقة ، أو كما كان من المحتمل أنهم كانوا أناساً هائمين ، فلقد كانوا يزورونها مراراً . وهذه القبيلة من المحتمل أنها ساعدت على تشغيل مناجم النحاس المجاورة وكان بعضهم صهارين للمعادن الخام أو حدادين متنقلين . وقد يكون إلههم هو إله سيناء الذي كان نشاطه على نطاق كبير مماثل تمام المائلة لنشاطهم الخاص . ونحن لانستطيع أن نفترض أن زوجة موسى عليه السلام ، وهي مَدْيِينَةُ^(٣٧) ، أنها لم تحدثه عن إله جبل هذه المنطقة . لاشك أن الموضوع لا بد وقد أثير مع أهل البيت ولا بد وأن كانت المناقشات اللاهوتية تثار مراراً فيما بينهم . وعند توجه ايها يثرون Jethro لزيارة موسى في سيناء وليحاط علماء (سفر الخروج الاصحاح ١٨) بما صنعه «يهوه» لشعب إسرائيل ، قال متعجباً «الآن علمت أن الرب أعظم من جميع الآلهة» ، وكان قوله هذا يشبه

(٣٦) انظر مونتجرى في كتاب «الجزيرة العربية والتوراة» Montgomery : Arabia and the Bible. (طبعة ١٩٣٤) ص ١٠ وكذلك بيور في كتابه العقيدة النبوية Buber : The Prophetic Faith (١٩٤٩) ص ٢٥ (٣٧) نسبة إلى مدينة (مدين) . المترجم .

ما جاء في « سفر التكوين » (الأصحاح ١٤) في الحادثة الهامة التي صرح فيها بملكي صادق Melchizedek بتصريح مماثل لإبراهيم ، وكان اسم الإله في الحالة الأولى وهو « الله العلي El'Elyon » ، اسم إله ملكي صادق الذي يستبدل به إبراهيم عمداً اسم « الإله الأعظم » لآبائه . وفي الحادثة الثانية الهامة ، استخدمت كلمة « يلوهم » وهي كلمة ، كما سبق أن شرحنا ، تعني آلهة كما تعني إله . إذن فعبارة « يثرون » (الذي يوصف هنا بأنه كاهن) تؤخذ على أنها تدل أحياناً لا على أنه عزاء توفيق إسرائيل إلى نعم إله الخاص الذي عسكرت الجماعة أمام معبده فحسب ، بل إلى أنه حدث بعد ذلك أن تحول موسى وشعبه إلى نفس هذا الإله الذي كان اسمه « يهوه » ولكن حقيقة الأمر هي عكس ذلك تماماً ، كما برهن تاريخ إسرائيل فيما بعد : فكلتا الحادثتين تصفان نوع الارتباط ، إنساني بقدر ما هو قدسي ، الذي صار به « يهوه » من خلال رسوله ، إله الشعوب إلى جانب كونه إله شعب إسرائيل ، حتى في زمن الأنبياء كان واضحاً أنه إله العالم يُخشى من جبروته ويُتضرع إليه : باختصار صار إلهاً لا للطبيعة بل للتاريخ .

الأنبياء :

بعد التيه في الصحراء لمدة طويلة بلغت الأربعين عاماً - وهي فترة برغم أنها تبدو قد تجاوزت الحد حتى بالنسبة لمجموعة غير متجانسة ، ربما مضت على خير وجه في حالة أهل البادية - فتحت مدينة كنعان في النهاية وأعقب ذلك عهد استقرار . وتاريخ هذا الاستقرار بقلاقله وانتفاضاته لم يكن أقل خطورة من قلاقل وانتفاضات الهجرة الصحراوية ، يجب أن نمر عليه مر الكرام . لقد حكم إسرائيل في بادئ الأمر قضاة ثم ملوك ، كان أشهرهم شاؤول Saul وداود وسليمان . وكان الأخيران رجلين غير عاديين في بصيرتها وحكمتها ولم يرد أي تسجيل عن «شاؤول» و«داود» خارج نطاق التوراة ، ولكن جزءاً من «كتاب الملوك The Book of the Kings» قد أيد ما جاء به ما وجد من نقوش في سنة ١٩٣٥ في تل الصوير . وبعد وفاة «سليمان» في أو حوالى سنة ٩٣٧ ق . م . هزت كيان إسرائيل حرب أهلية ، ونتيجة لذلك انقسمت البلاد إلى مملكتين : مملكة شمالية هي مملكة إفرايم Ephraim وكانت عاصمتها السامرة Samaria وأخرى جنوبية هي مملكة يهوذا Judah وظلت عاصمتها أورشليم Jerusalem . أما عن أن مثل ذلك القلق الاجتماعي مرده إلى بذخ

الملوك العظام ، فمن المحتمل أن يكون صحيحاً وبصورة خاصة في عهد سليمان . ونحن نعلم أن المعبد استغرق بناؤه سبع سنوات ، كما استفد كميات ضخمة من مواد البناء ، وأن سليمان عليه السلام رصد ثلاثة عشر عاماً يبني لنفسه قصرأ ، والمنشآت العامة من مثل هذا اللون عادة إما أنها مشروع مخفف لمشاكل العمل أو سبب قوى جداً لها . ولما غزا في النهاية الفرعون المصرى « شيشنق Sheshante » مملكة يهوذا سلب العاصمة واستولى على معظم الأكداس المقدسة من ذهب سليمان ، بدا تماماً كما لو أن الله كان ينفذ حكماً سماوياً على شعبه .

وعند هذه المرحلة الخطيرة من تاريخ إسرائيل كان الأمر يستلزم شيئاً من الإرشاد القديم . لقد أضحى ديانة البطارقة في حاجة إلى وعظ من جديد . وفي عهد الملوك كانت هناك ثروة وحكمة ، كما كان هناك فن (إذا سلمنا بأن داود كان مؤلفاً على الأقل لبعض المزامير) ولكن لم يكن لا داود ولا سليمان تابعين متحمسين من أتباع « يهوه » . لقد كانت شهرتهما عظيمة ولكنها كمثليين شخصيين كانا أقل تأثيراً^(٣٨) . ولقد مكنتهما قوتها الخارقة فقط من الحفاظ على مكانتهما كزرعيتين ، وكانت مثل هذه القوة واضحة في حالة « شاول » و « سليمان » ولكن في حالة « داود » كان هناك شيء أكثر من القوة ، أعنى العبقرية : إذ كان يعد داود ، بعد أخناتون ، وبصورة أكثر حيوية ، يعد أعظم « فرد Individual » في العالم القديم . وتصور شخصيته تصويراً بارعاً ، ولو أنها بشكل أكثر صراحة ، لا تعدو أن تكون شخصية رجل يقظ . (وفي إثارة شك حول حقيقته بالإشارة إلى نقص الدليل على ذلك خارج نطاق التوراة ، فيه تجاهل لأهمية البرهان الذى تقدمه التوراة ذاتها ، كما يبيط اللثام عنه علماء الآثار ، وهو أمر أشبه بمناقشة سلسلة من الحقائق لأنه لم يرد ذكرها في أى مكان خارج نطاق دائرة المعارف البريطانية) فن إذن ، من المفروض أن يكونوا حفظة الوعى الأخلاقى لإسرائيل ؟ عند من ، لكى نضع السؤال فى الصيغة الملائمة لبحثنا ، كان تطوير المعنى الأخلاقى فى الإنسان يبدو مدركاً بصورة أكثر وضوحاً ؟

إن كلمة « نبي » لاتعنى بالضرورة شخصاً ينبى بالغيب ، بل تعنى شخصاً يعلن أو يتحدثاً رسمياً نبأً وهذا هو نفس معنى الكلمة الإغريقية Prophetes . وإذا أخذنا هذا المعنى فى اعتبارنا لأدركنا خطأ الإصرار على أنه فى فترة من فترات الانشقاق فى حياة إسرائيل ظهر

(٣٨) سليمان مثلاً ، لم يرد فى بناء هياكل ومعابد لآلهة أغراب مثل استرت Astrate وتشموش Chemosh

الأنبياء. أنهم لم يظهروا، لقد عاودوا الظهور، وبطبيعة الحال، مثل كل شيء آخر يعاود الظهور، عاودوا الظهور في صورة جديدة، صورة ملائمة للعصر، وبدلاً من أن يكونوا قادة من الرجال المفوضين كانوا عادة أشخاصاً لا يتميزون إلا باقتناع حماسي ليدعمهم، اتهموا المسئولين بإيقاعهم الأذى بالناموس وتجاهلهم للحقائق. وكانوا أحياناً أفراد عائلات وذوي ثراء، وأحياناً فقراء إلى درجة الإملاق، وكانوا يجوبون الفيافي والقفار التي كان تردد صيحاتهم فيها يرمز إلى عدم الاكتراث الذي كثيراً ما كانت تلقاه رسالتهم. وكانوا أحياناً رجالاً شخصياتهم من اليسير علينا فهمها. لقد ظلوا مراراً مجرد مرددين لتحذيرات نبوية، لأننا نلاحظ في رسالتهم استثناءً لموضوع جور القوى على الضعيف لدرجة قصد فيها الحكماء المصريون، ومثل هذه الشخصيات المعتزلة مثل حمورابي أن يكفوا أيديهم عنها. هؤلاء الأشخاص ليسوا نقاداً عقلايين، ولا هم بأقدم الداعين إلى الاشتراكية الفكرية، بل هم أشخاص عاديون رفعوا أنفسهم بأنفسهم وأثار غضبهم الظلم الاجتماعي، وهم لا يمكن مقارنتهم بأناموس سقروم وإن كان من الممكن مقارنتهم فقط بسقراط Socrates الذي جاء بعدهم.

وأهم حقيقة عن الأنبياء، وهي حقيقة تهدف إلى أن تكون غامضة لو نظرنا إليهم فحسب على أنهم المتكلمون الرسمىون الأصليون باسم البروليتاريا Proletariat، هي أنهم كانوا يدعون الإلهام المقدس كقولهم «إن روح الله تحمل عليهم» وفي العالم الشرق القديم ويقدر كبير في العالم الحديث منه يلاحظ أن فكرة تملك الأرواح ليست شيئاً غريباً، فهي لا تحدث لكل فرد، ولكن قد تحدث للبعض بصورة طبيعية. والشخص المقدس ليس طرافة، وعييط القرية أو من يمثله لا بد وأن يقبل على أنه كذلك؛ أما عند أية نقطة في تاريخ العالم انكشفت القدرة على «كشف الرؤيا» والتحدث باللسنة (أعني السماح للآخر بالتحدث نيابة عن شخص آخر) وهما ظاهرتان يفصحان عن نفسيهما فقط في أثناء الأنشطة الدينية أو في صورة مخففة كوحى جالى، فهذا أمر لا نستطيع أن ندلى فيه برأى. وإذا كان «ت. س. إليوت T.S. Eliot» على صواب في افتراضه أن صورة معينة من الحلم المنظم الذي كان أمراً عادياً في عهد دانتي Dante قد توقفت، خلال السبعمائة أو السبعمائة السنة الأخيرة^(٣٩)، فإننا لا يمكننا أن نعجب من أن آلاف السنوات القليلة الأخيرة قد شهدت تدهوراً في إحساسها بالصور

الأخرى من صور الخبرة التبصيرية ، منظمة كانت أو غير منظمة . ولا يمكن لأية دراسة للفكر الشرقى أن تتجاهل حقيقة الخبرة التي تفوق دقة الإحساس . وفي رأى بعض المفكرين - وكان « ألدوس هكسلى Aldous Huxley » نفسه في كتابه المشهور « الفلسفة الدائمة The Perennial Philosophy » يعد نفسه من بينهم - أن معيار التبصر الشرقى هو فحسب الفهم التصوفى لنظام كوفى رفيع تاركاً « الفلسفة » بالمفهوم الغربى لكشف تلال المعرفة المتخصصة . ولو أنك أنكرت إمكانية مثل هذه المعرفة فيجب على الأقل أن تأخذ على عاتقك أن تشرح كيف أن التفكير الشرقى ، الذى لا تنقصه الفطنة قد استفد قدرأ كبيراً من الجهد تجاه تحصيلها وحتى إذا كان الصوفى الشرقى ، أو أى صوفى موقفه من ذلك الأمر مثار سوء فهم ما يتصل بطبيعة هذا الشكل من المذهب ، فقد يكون من الطريف كشف أسباب مثل هذا الانصراف الأساسى عن العقل العام . وبدون تتبع هذا الموضوع ، الذى ستناوله فيما بعد بالتفصيل ، يجب علينا أن نقبل حقيقة أنه لم يدع الأنبياء فقط أنهم متكلمون مقدسون بل إنهم الأكثر فيها حسب حكم التسجيلات المعاصرة لمجموعة من الأشخاص وهبوا بصيرة مماثلة .

وفي كل لغة تقريباً ، يلاحظ أن الكلمة الدالة على « الروح Spiritus » والكلمة الدالة على « النفس Pneuma » هى ، إن لم تكن متماثلة فهى قريبة منها ، وهى فى العبرية « Ruah » . والنهى أو النبىة - لأن هناك نساء متكلمات مديعات للأنبياء أيضاً ، وبخاصة فى إسرائيل - فرد من خلاله يهبُ نفس المعرفة المقدسة ، وكلماته نتيجة لذلك « ملهمة » أو مستمدة من مستودع الروح الذى هو الله . ومن أقدم العصور ، لدينا برهان على أن مثل هذا الإلهام يمكن أن يكون فى صورشئى ، واحد منها فقط حقيقى ، لأن الكذب والزيف كثيراً ما يمكن تمييزها من التنوع ، فهناك النبى الذى حُمِّل بصورة فريدة وواعية بدعوته ليبلغ رسالة ، وهناك الشخص الذى يعدُّ ، بدون فهم سديد ، وسيلة لمثل هذا التبليغ ، وكان بلعام Balaam أوضح مثل لهذا الشخص ، وأخيراً ، هناك « النبى الزائف » وهو أمر شائع بما فيه الكفاية فى إسرائيل ، رسالته سواء كانت مفهومة أو غير مفهومة ، مؤذية بصورة عامة . والشئ المشترك بينهم جميعاً هو النفس ، الوحى Afflatus الذى بموجبه يبلغ الرسالة . والنهى الحق هو الذى ينطق ببلاغة لها وزنها ، أما النبى مدعى النبوة فجرد شخص كثير الكلام .

واستناداً إلى ما ذكره محمد ﷺ ، مامن نبي عظيم ظهر إلا وبدأ حياته راعياً للغنم ، كان عاموس Amos راعياً . ولما كان يعيش في أيام عزّيا Uziah ملك مملكة يهوذا ، فقد وصف نفسه قائلاً : « لستُ أنا نبياً ولا أنا ابن نبي بل أنا راع وجاني جميز » وبرغم ذلك أخذه « الرب من وراء الضأن » ، وقال له : « اذهب تنبأ لشعبي إسرائيل »^(٤٠) . وبعد أن زار مدينة بيت لحم Bethel جلس على البوابة هناك واسترسل في الشهير بمواطنيها وكل إسرائيل لتبذيرها ولاستغلالها وتنكُّرها للرب . وكانت كلماته أكثر تأثيراً في حفاظه على صورة دعوته الأصلية « ويل للمستريحين في صهيون . . المضطجعون على أسرة من العاج ، والمتمددون على فرشهم والآكلون خرافاً من الغنم وعجولاً من وسط الصبرة ، المهاذرون مع صوت الرباب ، المحترعون لأنفسهم آلات الغناء كداود^(٤١) » . وقال بعد ذلك بصورة أكثر صرامة ويسداد : « هكذا قال الرب ، كما ينزع الراعي من فم الأسد كراعين أو قطعة أذن ، هكذا يُترَع بنو إسرائيل الجالسون في السامرة في زاوية السرير وعلى دمقس الفراش »^(٤٢) .

هذا الهجوم على من يلتهمون المحتاج ويريدون أن يجعلوا كادح الأرض يموت جوعاً « ومن يطففون الموازين بالخش » هو أكثر عنفاً في تأثيره عن الجزء الباقي الوحيد من الأدب التحذيري Denunciatory Literature الذي يمكن أن يقارن به ، أعنى القصة المصرية المعروفة باسم الفلاح الفصيح ، إذ أن الفلاح يذكرُّ المسئولين بواجباتهم ، فهو يصيح في وجه الوزير الأعظم : « أنت الميزان » ولكنه لا يقترح أن الأمر يستلزم أن تؤخذ هذه الأداة من يد الحاكم ، فهو يريد لها أن تغفل في يديه ، وبالحديث نيابة عن « يهوه » ينذر عاموس بالدمار الشامل للمجتمع الذي فهم نفسه دائماً على أنه « الشعب المختار » أو « كتر » الرب . وهناك ملاحظتان في عاموس (الأصحاح الثامن) توضحان هذا الأمر كل الوضوح : يقول الرب « قد أنت النهاية على شعبي إسرائيل » « لأعود أصفح له بعد » . ومن ثم فإن نفس أغاني ومزامير المعبد « سيحولها الرب مرثى في ذلك اليوم » ومع ذلك ما هو أفظع ، الوسيلة التي تحقق بها خلاص إسرائيل في الأصل ستدور دائرتها على شعب ناكِر للجَميل لا مبال « تطموكلها كتهر وتفيض وتنضب كتيل مصر » . (عاموس الأصحاح الثامن/ آية ٨)^(٤٣) .

(٤٠) عاموس : الأصحاح السابع ، آيتا : ١٤ ، ١٥ (الترجم) .

(٤١) عاموس : الأصحاح السادس ، آيات : ١ - ٥ (الترجم) .

(٤٢) عاموس : الأصحاح الثالث ، آية : ١٣ (الترجم) .

(٤٣) تمخدير متكرر في الأصحاح التاسع آية : ٥ ، وهاك نمه : « تطموكلها كتهر وتنضب كتيل مصر » (الترجم) .

وإذا كانت رسالة عاموس محض رسالة منذرة بالدمار فقد لاستحق أكثر من اهتمام عابر ولكن نبوءته مع نبي آخر معاصر له على وجه التقريب وهو « هوشع Hosea » يبدو أنها تحققت في حادثة حدثت : لقد أعلن هوشع أنهم « يزرعون الريح ويحصدون الزوينة » (٤٤) وما لبثت أن اشتبكت مملكتنا « أفرايم » و « يهوذا » في حرب . ولما أحست مملكة « يهوذا » نفسها أنها مهددة ، طلبت العون من آشور فأرسلت الأخيرة جيشاً لم يهزم جيوش أعداء يهوذا فحسب ، بل صمم على أن يستغل نجاحه وانقلب على مملكة يهوذا نفسها واجتاحها حتى بلغ أبواب أورشليم وكاد أن يستولى على المدينة . وحتى لو صح ذلك الأمر ، فإن مثل هذا التحقيق لكلمات الأنبياء لم يكن أهم جانب في مهمتهم . ونلاحظ في أعمال « عاموس » تطوراً فكرياً فيما يتصل بالرب ، يظهر فيه الأنبياء على أنهم البادئون بمرحلة جديدة في الوعي الأخلاقى للجنس البشرى . وإذا كان عاموس قد شهر بإسرائيل وأنذر بانقراضها الحقيقي كشعب ، فقد ذكر شعبه ، وهم في غرورهم ، بشيء قصدوا أن يتجاهلوه : أن الله قد عاهد بني إسرائيل بأنه سيصطفهم ليكونوا شعبه المختار ! وفي الوقت نفسه فإن هذا الاختيار قد فرض عليهم مسئوليات خاصة ليس عليهم فقط أن يكونوا جديرين بالثقة التى وضعت فيهم ، بل يجب عليهم أن يدركوا أنهم ليسوا الأناس الوحيديين الذين يهتم الله بأمرهم ، فهو يقول : « إن الأرض كلها ملكى » بل إنه ليعتفهم على ظنهم أنه ، بتحريره لإسرائيل من العبودية قد أخذ على عاتقه شيئاً فريداً على الإطلاق ، « ألسم لي كبنى الكوشيين » (٤٥) ، يا بني إسرائيل ؟ وقال الرب ألم أصعد إسرائيل من أرض مصر ؟ وكذلك - لأبرهن على جبروتى - أصعدت الفلسطينيين من كفتور Caphtor والآراميين (٤٦) من قير Kir . . لأنه . . هأنذا أمر فأغربل بيت إسرائيل بين جميع الأمم ، كما يغربل في الغربال وحة لا تقع إلى الأرض ، (٤٧) .

هكذا كانت ذروة قصة ، تبدأ بتأثير « ملكى صادق » و « يثرون » وتنتهى فقط بوصية المسيح بتعلم الإنجيل لكل مخلوق . والتطور التاريخى واتساع البصيرة الذى يحمل له العهد القديم ، مع كل ما به من متناقضات ، دليلاً ثابتاً ومقتعاً ، قد بدا لبعض النقاد أنها يشيران

(٤٤) هوشع ، الأصحاح ٨ آية : ٧ (المترجم) .

(٤٥) المقصود : الإثيوبيون (المترجم) .

(٤٦) المقصود : السورويون (المترجم) .

(٤٧) عاموس : الأصحاح التاسع ، آيات : ٧ ، ٩ (المترجم) .

إلى سلسلة من الأحداث ، منها يتضح أن الإيمان العالمي بالمسيحية قد ظهر بمحض الصدقة أكثر من أن يكون نتيجة رسم وتخطيط . وإذا تركنا جانباً موضوع « صدق » هذا النظام أو أى نظام غيره من نظم الإيمان لألقيت المسئولية على أولئك النقاد ليقترحوا وسيلة أخرى يمكن بها أن تنبثق عقيدة عالية بدلا من أن يكون ظهورها عن طريق الانتشار التدريجي من بدايات صغيرة . إن مملكة السماء لا يمكن أن يعلن عنها بنشرة بريدية : إن أصلها حبة من خردل .

ولقد طوّرت وجهتها نظر كل من « عاموس » و « هوشع » على يد رجل عجيب شهد بنفسه الهجوم الآشوري على أورشليم . وكان هذا الشخص هو « أشعيا » Isaiah « الذى ألف ما لا يقل عن تسعة وثلاثين فصلا من السفر الذى يحمل اسمه . ومشاركة منه لآراء زملائه من الأنبياء فيما يتصل بعدم استئصال إسرائيل ، يرى أن في إمكان فئاتها أوهزيمتها وسيلة يمكن بها أن تظهر آثارها . وإذا كان رب إسرائيل هو رب العالم فيستعين بأشور ، وفي الواقع ، بأى شعب آخر ليحقق غرضه . وهكذا يولد وضع جديد للتاريخ . وفي اعتقاد المصريين أن أعداء الفرعون لا يستحقون الهزيمة فحسب ، بل مقدر لهم حتماً أن يعانوها . والموت والدمار اللذين شاهدنا أن وجودهما كان وفقاً على العدو فحسب ، قد أبتدعا عن قصد ليكونا رداً على أى تحدٍ لقوة السليل المقدس لحورس . وفي رأى « أشعيا » الذى يعد أول مجموعة لمثل هؤلاء المنتبئين ، أن هذا الوضع ليس إلا فخراً صيبانيا ولا بد لأبناء إسرائيل أن يقاوموا عدو الوطن داخله كما يقاومونه خارجه . والعدالة في داخل البلاد الترام لا يقل قدرها عن مقاومة الأعداء الخارجين الذين كان يثير طموحهم دائماً أمل سلب مملكة مضطربة ومتمردة ، ولذلك ، فإن « أشعيا » بعد أن نصح الملك « حزقيا » Hezekiah « بأن يقاوم « سنحاريب » Sennacherib « بأقصى ما لديه من قوة ، يتوجه بعد ذلك إلى شعبه هو بكلمات تعبر في كل وقت من الأوقات عن الغضب البالغ Saeve Indignatio لرجل عادل : « مالكم تسحقون شعبي وتطحنون وجوه البائسين^(٤٨) . . . ويل للذين يصلون بيتاً بيتاً ويقرون حقلاً بحقلى حتى لم يبق موضع ، فصرتم تسكنون وحدكم في وسط الأرض^(٤٩) . . . ويل للذين يقضون أفضية البطل وللكتبة الذين يسجلون جوراً ، ليصدوا الضعفاء عن الحكم ويسلبوا حق بائس شعبي لتكون الأراميل

(٤٨) أشعيا ، الأصحاح الثالث : آية ١٥ (المترجم) .

(٤٩) أشعيا ، الأصحاح الخامس : آيتا ٨ ، ٩ (المترجم) .

غبيمتهم وبنهوا الأيتام»^(٥٠) : إن العبادة التقليدية وتقديم الأصحاحات بانتظام ، بل والصلوات الصادقة ليست بكافية . «لماذا لي كثرة ذبائحكم يقول الرب ، أُنحمت من محرقات كباش وشحم مسمنات . وبدم عجل وخرقان وتيوس ما أُسره»^(٥١) . . فحين تبسطون أيديكم أستر عيني عنكم وإن كثرت الصلاة لا أسمع . أيديكم ملأته دما»^(٥٢) .

وبرغم أنه كان أبلغ الأنبياء وربما أبلغ من كل بليغ في جنسه، لم يجهد «أشعيا» مستمعيه بمحض خطابات تشهير. لقد نشرها مع تعليقات دقيقة لما يمكن عمله لإنقاذ البلاد : «اطلبوا الحق (بمعنى انظروا إذا كانت العدالة تأخذ طريقها) ، انصفوا المظلوم ، افضوا لليتيم ، حاموا عن الأرملة»^(٥٣) ، ولكن هذه الوصايا برغم ماها من عنف لا تشكل أهم جزء في رسالته . ويقدر ما كان موقفه من الصراعات السياسية في عصره ، كانت هذه الرسالة لها أهميتها التاريخية . وفجأة ينتقل اهتمامه من الحاضر ، ويتغلغل في المستقبل الذي برغم بعده ، لا يمكن أن ينظر إليه على أنه بعيد بعداً لا يمكن تصوره . لقد كانت متاعب إسرائيل وجيران إسرائيل ، التي تحتل كل اهتماماته ، مدركة على أنها متاعب عميقة الجذور بدرجة لا يمكن علاجها بسرعة . وإن « جمع » التاريخ وحده في حادثة في أوانها أو بعد فوات أوانها قد ينذر بنهاية خلاف ، جشع وحرب . مثل هذا الحدث هو المولد الذي لا يمكن تصوره (ومن ثم لا يمكن إدراكه) في صورة بشرية لرب الآباء والذي لاصورة له ولا يمكن تشخيصه حتى الآن . وذروة « مظاهر » الرب من ذلك الوقت عند سيناء ومابعده ربما كانت من الناحية المنطقية : ظهوره الفعلي على الأرض ، اتخاذه طبيعة آدمية ، تجسده . ولما كانت هذه التكتشفات المتوالية قد امتدحت حتى الآن للأناس المقدسين والمختارين ، إذن ، فلا بد أن مولد هذا « المنقذ » ربما أنبتق بطبيعة الحال من « نسب يسي»^(٥٤) Stem of Jesse . وباستثناء الفقرة المختصرة من « ايور » التي لا بد وأن معناها لا يزال غامضاً دائماً ، فإن الكلمات التالية تعد أول كلمات من نوعها يُتفوه بها :

- | | |
|----------|---------------------------------------|
| (المرجم) | (٥٠) أشعيا الأصحاح العاشر ، ١ ، ٢ |
| (المرجم) | (٥١) أشعيا ، الأصحاح الأول/١١ - ١٣ |
| (المرجم) | (٥٢) أشعيا ، الأصحاح الأول/١٥ |
| (المرجم) | (٥٣) أشعيا - الإصحاح الأول/١٧ |
| (المرجم) | (٥٤) يسي هو أبوسيدنا داود عليه السلام |

« تأملوا ، أن عذراء ستصبح حيلي ، وستحمل ابناً وسيكون اسمه عمانوئيل . . (٥٥) لأنه سيولد عندنا طفل ، وستلقى مقاليد الحكم على كتفيه ، وسيدعى الرب العجيب ، الحكيم القوي ، الأب الأزلي ، أمير السلام . . يخرج قضيب من جذع يسي . . ونحل عليه روح الرب ، روح الحكمة والفهم ، روح المشورة والقوة ، روح المعرفة ومخافة الرب . . يقضى بالعدل للمساكين ، ويحكم بالإنصاف لبائسي الأرض . . ويكون « البر » منطلقاً منتهياً و« الأمانة » منطلقاً حقوياً ، فيسكن الذئب مع الخروف ويربض النمر مع الجدى والعجل والشبل والمسنن معاً ، وصبي صغير يسوقها (٥٦) . . فيطبعون سيفوهم سككاً ورماحهم مناجل . لا ترفع أمة على أمة سيفاً ولا يتعلمون الحرب في مابعد (٥٧) .

ومن الصعب الحكم بأي معيار من الفهم تلقى البيت الملكي الإسرائيلي والكهنة وأخيراً الناس ، الذين أعلنت متطلباتهم لأول مرة ، تلقوا هذه النبوءة المثيرة ، وقد صار الإنجيل - وفي بعض أجيال مثل إنجلترا البيورانية صار العهد القديم بصورة خاصة - كتاباً مقدساً لدى الملايين فضلاً عن كونه كتاباً يبجله ملايين أكثر ، ومع ذلك ، فقد يكون من الأفضل بالنسبة للمسيحيين التقليديين أن يتأملوا المادة المثيرة التي تجمعت داخل ذلك السفر المجلد تجليداً فاحراً ، والذي كثيراً ما يوضع في مكان هادئ من كنيسة من الكنائس أو على رف خفي من رفوف الكتب ، يوحي بمظهر خارجي آمن ، وإذا كان علينا أن نربط معاً أعنف الشهيرات السياسية بالأغنياء والأقوياء وأعنف السخريات بالسلوك التقليدي وأكثر التعليقات أثراً على الزهو بالحياة جنباً إلى جنب مع أحسن التعبيرات الشعرية عن حضارتنا وأحصف حكمها ، ما كان في إمكاننا أن نجتمع مجموعة تمثل مقدار العشر مما يعبر عن الرضا الذاتي المحير كذلك الدليل المختار للناموس القديم . وقد نعجب كيف أن الأنبياء دبروا كيف ينجون بحياتهم وكيف أن رسالتهم ، بما فيها من مضامين مثيرة ، لم تتفق والرقابة الصارمة أو حتى الكبت الكامل . ويزداد العجب بقراءة رسالة « إرميا Jeremia » إذ أنه في سنة ٦٣٩ اعتلى « يشوع Josiah » عرش مملكة « يهوذا » . ويعد حكمه ذا أهمية خاصة لسببين : إذ أنه نتيجة لوعظ الأنبياء ، صار الكهنة أكثر اهتماماً بظروف الإيمان الصحيح الذي كان في خطر من كل من

(٥٥) انظر الفصل الأول من هذا الكتاب ، ما جاء تحت العنوان الفرعي ، « ترجمة مبكرة لفكرة مألوقة » .

(٥٦) أشعياء ، الأصحاح الحادى عشر/١ - ٦ . (المترجم)

(٥٧) أشعياء ، الأصحاح الثاني/٤ (المترجم)

الدنس ومن الإهمال ، كما أن الوقت كان مناسباً للعودة إلى المبادئ الأولى أو بمعنى آخر إلى تجديد عهد موسى . ولقد سبب ما عثر عليه في المعبد سواء عن طريق الصدفة أو عمداً للفاقة تفيد بأن قد كتبها موسى عليه السلام بنفسه ، سببت إحساساً عميقاً في أرجاء البلاد ، وهي تمثل بداية التجميع الحازم للكتابات المقدسة التي تشكل الآن « ناموس موسى Pentateuch »^(٥٨) ، ولكن برغم حماسة « يشوع » الإصلاحية انخط مستقبلاً إسرائيل السياسي انخطاطاً بالغاً . ومن المسلم به أن قوة آشور أختفت بسقوط نينوى Nineveh في سنة ٦١٢ ق . م . ، ولكن عدواً مالبث أن أفسخ الطريق لعدو غيره ، وقُتل « يشوع » نفسه في « مجدو » في محاولة لصد غزو مصرى ، وجاء التهديد الذى أعقب ذلك من بابل ، التي هاجم ملكها نبوخذناصر^(٥٩) Nebuchadnezzar أورشليم مرتين ، في أول مرة أقام ملكاً ضعيفاً يدعى « صدقيا Zedekiah » على العرش ، وبعد ذلك ، عندما حاول الملك الضعيف أن يصبح أكثر أهمية بأن يتولى هو نفسه أمور البلاد ، خلع « صدقيا » وأحال أورشليم إلى أنقاض ونفى معظم سكانها إلى بابل ثم أعقب ذلك ما يسمى « بالسبي البابلي »^(٦٠) .

. « Babylonian Captivity » .

كانت هذه فرصة « إرميا » لقد بدأت مهمته قبل النبي مباشرة ، ولما فشل في تحمل الحالة النفسية للشعب بالمعنى الصحيح ، أقام من نفسه سوطاً لشعب وثني لأيقوم . وعلى شاكلة أشعياء الأول أعلن أن تسلط بابل لا بد وأن يتحقق فحسب ، بل لا بد أيضاً أن يدعمه إرادة « يهوه » ونادى بأن اليهود قد جروا على أنفسهم هذا المصير المروع . لو أنه قد روعيت قواعد العدالة ، ولو لم يزد الظلم الداخلى والفساد الداخلى لما توفى « يهوه » بكل تأكيد عن معاونة شعبه المقدس ، ولكن (الفقرة تذكر المرة بموقف الرب من أهالى سدوم) « طوفوا في شوارع أورشليم ، وانظروا واعرفوا وفتشوا في ساحاتها هل تجدون إنساناً أويوجد عامل بالعدل طالب الحق فأصْفَحَ عنها »^(٦١) . وفي وقت المحنة الوطنية الحارة ، عندما توقفت عادة المهارات التي لاجدوى من وراثتها ، أصر « إرميا » على أن تكون الأولوية للعدالة والاستقامة على الأمن

(٥٨) هي أسفار موسى الخمسة الأولى من العهد القديم .

(٥٩) يعرف في المراجع العربية باسم « نبوخذناصر » (المترجم) .

(٦٠) سبق هذا النفي نقل ١٠,٠٠٠ من اليهود إلى بابل بعد أول هجوم قام به « نبوخذناصر » على أورشليم .

(٦١) إرميا ، الأصحاح الخامس/١ (المترجم) .

القمي . وكمكافأة على صراحته علّق على بوابة عالية ، وأودع في سجن قدر ، توطئة لإعدامه ، ولكن الملك رفض أن يضيف لقب الشهيد إلى لقب النبي ، ولذلك أوقف تنفيذ الإعدام فيه . وعندما اقتحم « نبوخذ ناصر » بوابات أورشليم ، وجد هذا الخليف الأبني تحت الحجز التحفظي في قصر الملك ، فأعدم « صدقيا » ولكنه أبقى على « إرميا » ولم يتبع الأخير شعبه في طريقه إلى النبي .

وفي الأيام السابقة للحصار كجزء من شعاره ، صنع « إرميا » لنفسه رُبّطاً وأنياراً وجعلها على عنقه^(٦٢) كرمز للمصير الذي لا بد لاحق بأورشليم ، وكتب ، وقد تقدم به العمر ، سلسلة من « المرائي » التي ندب فيها ذلك المصير في شعر قاتم ، وإن كان رائعاً ، وتماماً كما كان يطلب رؤساء العمال من مواطنيه المنفيين « أن ينشدوا أغنية من أغنيات « صهيون Sion » التي كانوا ينشدونها من الزمور النفيس الذي أوله : « على أنهار بابل هناك جلسنا »^(٦٣) كذلك كان « إرميا » وهو منفي في أنقاض داره هو نفسه ، مدفوعاً لأن يعيش على نفس الأسلوب ، ولكن مع ضغط أكبر ، ولذلك كان أكثر واقعية . إن موضوع « عدو البشر » المصري يثار هنا ، كما أثاره الفطن في كل عصر ، « كم أنت عادل يا إلهي ، عندما أتوسل إليك ولكن - وهذا هو الموضوع الأساسي بين الإنسان والرب - دعنا نتحدث عن حكمك : لماذا يشق الشرير طريقه بنجاح ؟ لماذا كل من هم خونة سعداء ؟ هذا الموضوع عولج أعمق معالجة في سفر « أيوب » الذي لا بد وإن كان تأليفه حوالي سنة ٤٥٠ ق . م .^(٦٤) .

لقد كانت عبارة « لوتسيتك يا أورشليم ، فلتنس يدي اليمنى مهارتها » أقدم قسم بين المسييين ، بيد أن الظروف التي جعلت من الصعب « إنشاد أنشودة الرب في بلد غريب » هي التي جعلت من السهل التراخي في الرقابة الدينية ، أو أكثر تحطيماً للحالة النفسية العامة ، « السير في أعقاب آلهة غريبة » وبالنسبة للأمر الأخير ، كان في بابل تنوع ضخم منها . والسبي البابلي ، برغم قصر مدته ، وبرغم أنه في مجموعه أقل عناء من السبي المصري إلا أنه برهن في أساليب كثيرة على أنه أكثر تحطيماً لشعب جمع كلمته إيمان طبع على العبودية والاضطهاد ،

(٦٢) إرميا ، الأصحاح السابع والعشرون/٢ (المترجم) .

(٦٣) مزابير ، الزمور المائة والسابع والثلاثون/١ (المترجم) .

(٦٤) هناك اعتقاد بأن بعض أجزاء من الأدب البابلي عن نفس الموضوع متناثر بهذا الكتاب والبطل هو تاني بوتال -

أنليل Tabi-Utal-Enlil ، حاكم نيبور Nippur .

ومع ذلك فقد وهب بقوى اندماج تفوق أى شعب من الشعوب . فى هذه الظروف برهنت بعثة النبي على أنها أكثر أهمية من ذى قبل . لقد كان « حزقيال Ezekiel » أحد الأنبياء القلائل الذين كانوا كهاناً (أو هكذا يُدْعَوْنَ) الذين شرعوا فى استكمال عمل « إرميا » . وعلى غير شاكلة الأخير ، كان يعلم ، بطريقة مباشرة ، ما يجره السبي من مرارة وإفساد للأخلاق ، إذ كان من بين أوائل اليهود المسيبين إلى بابل ، وما يصدق عليه شخصية نبي أنه يصف كيف أنه كان من « بين المسيبين بالقرب من نهر خابور Chebar فى أرض الكلدانيين » وكانت عليه هناك يد الرب ، ورأى ، بعد أن انفتحت السموات ، « رؤى الله »^(٦٥) وقد اتخذت هذه الرؤى صوراً غريبة . إن أى فرد زار البلد الذى كان حزقيال مجبراً على أن يعمل بها يمكن أن يكتشف بدرجة كبيرة أن ما كُتِبَ كُتِبَ بأسلوب هذيانى نتيجة تعرضه لفترات طويلة لحرارة الشمس الشديدة ، التى من جرائها يتملك المرء انطباع بأن السماء تقدم صوراً كتلك التى تسجلها افتتاحيات سفره^(٦٦) .

وعلى غير شاكلة « إرميا » يختم « حزقيال » سفره برسالة أمل مؤداها أنه لو أفلح بنو إسرائيل ، عن انقساماتهم السياسية (خاصة الانقسام إلى مملكتى « أفرايم » و « يهوذا ») ولو توقفوا عن تدنيس أنفسهم بمعبوداتهم وغيرها من الأمور البغيضة ، لظهرهم « يهوه » ولصاروا مرة أخرى شعبه المختار .

ولو كانت أسفار الأنبياء فى العهد القديم ، كما يعتقد الشعب اليهودى ، لاتصل درجة الكمال التى بلغتها فى العهد الجديد ، فإن رسالتها المتعاقبة - لأنها الرسالة الواحدة التى قامت بتبليغها أفواه كثيرة - تكشف عن تقدم فى البصيرة الروحية ، وإدراك عميق لطبيعة الرب ، لا يمكن أن يقارن بها أى تقليد آخر دينياً كان أو أدبياً أو تاريخياً . وإذا لم يتوقعوا منتقداً ، أو على الأقل المنتقداً الذى هو « يسوع الناصرى Jesus of Nazareth » فلربما توقع كل واحد منهم الآخر ، فشعلة التنور لا يسلمها الواحد للآخر فحسب بل ، كما يفهم أيضاً ، يبدو أنها تزداد بهاء . وقد لا يتنبأون إن شئت بالنبي الأسمى ، ولكن فى شخص يمكن أن يُسمى باسم « أشعيا »

(٦٥) حزقيال ، الأصحاح الأول آيات : ١ - ٣ (المترجم) .

(٦٦) كثيراً ما يكون فى استطاعة كاتب متأخر أن يحمى فقرة من أدب قديم أو يجعلها على الأقل أكثر حيوية وهذه هى الحال مع قصيدة ت . م . إليوت « رماد الأربعاء Ash Wednesday » التى يشكل « وادى حزقيال » خلفية الفصل الثانى منها والى يذكر فيها أن حزقيال مصاب بالصرع ، وقد يكون الافتراض قائماً على أساس افتراض عصرى ، وهو أن قدرته على الرؤيا هى عادة نتيجة مرض .

ثان **Second or Deutero Isaiah** « يتنبأون بكمال النبوة ، لأنه في عمل هذا الكاتب الأخير ، الذى لانعرف شخصيته ، أن الطبيعة الحقة لرب الآباء تُدرك في أنتى ضوء . وحزقيال ، كما رأينا ، ختم كلامه بتعليق يندر أن يخطر ببال أسلافه (الذين كان يلاحقهم انتقام « يهوه » الذى يمكن أن يوصف في أسلوبنا العصرى بأنه مرض) « سأضع ميثاقاً للسلام » وبنفس الطريقة يستهل أشعياء الثانى رسالته برقة تكاد تكون مذهلة ، مثل هدوء مفاجئ بعد عاصفة لامثيل لها في شدتها وعنفها . « عزوا ، عزوا شعبي ، يقول إلهكم » (٦٧) ذاكراً في حاس بالأسلوب التقليدى أن روح الرب قد حلت فيه ، ومن ثم فهو يعلق بنود مهمته : « لأن الرب مَسَّحَنِي لأبشر المساكين : أرسلنى لأعصب منكسرى القلب ، لأنادى للمسيبين بالعتق وللمأسورين بالإطلاق » (٦٨) ولم يتحدث أحد في إسرائيل أو في أى مكان آخر بمثل هذا تماماً من قبل .

وطريقة التمجيد السائدة خلال جل الجزء الثانى من « أشعياء » (٦٩) فقد قوتها لو أننا نظرنا إليها على أنها فقط مجرد أدب رفيع ، إذ أن الأدب الرفيع بمعنى كلمات طنانة بدون مضمون أو بمضمون يعتبره القراء المثقفون مضموناً مرفوضاً ، هو محض نحاس رنان وصنوج مجلجلة . و« الكتاب المقدس الذى يجب أن يُقرأ كأدب » إذا اقتبسنا عنوان إعلان أكثر إثارة ، هو الكتاب المقدس الذى كثيراً ما يُترك بلاقراءة ، والذى يهمل في النهاية ، كما يستحق أن يكون عليه كل أدب انفصل عن رسالته الحيوية ، و « أشعياء الثانى » ، أدب رفيع لأن رسالته عن الأمل والصفح حتى لو ترعرعت على كمال تاريخى وهمى ، لهى أنبل رسالة بلَّغها إنسان حتى الآن لمعاصريه في بضعة آلاف من السنين من الحياة الحضارية ، وإذا كان نشرها في تلك الحقبه لا يعد بمثابة موضوع تاريخى ، كجانب من إنجاز العقل البشرى في تطوره البطيء ، إذن فالموضوع التاريخى لامحالة موضوع ميت ، وقد تبدو كل قيمنا الحضارية قائمة على وهم . وأدب الأمل وأدب الإيمان بمجىء منقذ للبشرية (٧٠) مترابطان : لقد لاحظنا من وقت لآخر نغمة أمل في الأدب المصرى ، أما في أدب بابل فلا وجود لها من الناحية العملية . وتحت

(٦٧) أشعياء ، الأصحاح الأربعون - ١ (المترجم) .

(٦٨) أشعياء ، الأصحاح الحادى والستون - ١ (المترجم) .

(٦٩) ويبدأ من الأصحاح الأربعين وينهى بالأصحاح السادس والستين (المترجم) .

ظلم مجتمع كهنوتى شديد فى الخارج وتحت ضغط « وعى الخطيئة » فى الداخل ، يبدو لنا أن رجال العالم القديم شبه الشرق يكاد ينقصهم كل شيء يجعل الحياة جديرة بالعيش . وفى الواقع ، نحن نعلم أنه فيما يتصل بالسعادة اليومية . يندر أن يكون الناس فى عصر من العصور أحسن حالا من بعضهم بعضاً ، والتسجيلات التاريخية ، التى جعلتها الضرورة إنجازات ، لتسجل « الحياة اليومية » ومع ذلك فهناك صورة أخرى من صور السعادة تلك التى لاتجعل الحياة جديرة بالعيش فيها فحسب ، بل تجعل الموت أيضاً جديراً بأن يموت المرء . هذا هو نتيجة الإيمان فى مغزى الحياة ذاتها ، ولو كان مغزى للحياة البشرية إذن فهو مغزى للحياة كلها . مثل هذا الإيمان لأسباب أبعد من إدراكنا الراهن ، يبدو أنه كانت له صلة ب « أو أنه تناول ، الإنسان ضمن الذاكرة التاريخية ، ولكن حتى ذلك كان أمراً تدريجياً وخطوة خطوة . أما عن أن « أشعيا الثانى » لابد وأنه قد سجل رؤياه الملهمة بإيمان مجيئ منقاد للبشرية ، ربما فى نفس وقت « ظهور » « البوذا » فى الهند ، فقد يوحى إما بانشغال مماثل برغم انتفاء وجود علاقة فى أقاليم مختلفة فى العالم ، فى نفس الوقت ، أو لما كان مثل هذا الانشغال دائماً ، تبذل أكثر من سلسلة عادية من المحاولات . وبالتسبة للمسيحيين ، فإن الفقرة التالية لابد وأنها تبدو بطبيعة الحال لها مغزاها عندهم أكثر من مغزاها لدى من لايقرون الرؤيا ، ولكن لاتزال ذات مغزى : « صوت صارخ فى البرية ، أعدوا طريق الرب ، قوموا فى القفر سبيلاً لإلهنا . كل وطاء يرتفع ، وكل جبل وأكمة ينخفض ، ويصير المعوج مستقيماً والعراقيب سهلاً ، فيعلن مجد الرب ويراه كل بشر جميعاً^(٧١) . . . يامبشرة أورشلين ، ارفعى صوتك بقوة . . هو ذا السيد الرب بقوة يأتي وذراعه تحكم له ، هو ذا أجرته معه وعملته قدأمه . كراع يرعى قطيعه . بذراعه يجمع الحملان وفى حضنه يحملها ويقود المرضعات »^(٧٢) .

عندنا هنا ثلاثة تضرعات : وعد رب الآباء الذى هو أصلاً لا اسم له ولاصورة له ، وقد تكشف فى النهاية لشعبه ، وتضرع لأورشليم لا فى الكلمات البابوية « لإرميا » ولاحتى « لحزقيال » بل كمروس فى انتظار زوجها ، وأخيراً الوصول بمجازات الأنبياء الرعاة الأولين إلى ذروة الجمال الرعوى .

وبالرغم من أن « أشعيا » يتحدث فى أسمى الانفعالات فإنه يتملكه كسمبه إحساس

(٧١) أشعيا ، الأصحاح الأربعمون ٣-٥ (المترجم)

(٧٢) أشعيا ، الأصحاح الأربعمون ٩-١١ (المترجم)

سياسى حاد . ولم يكن إطلاق سراح اليهود من بابل مجرد أمل بإنقاذ للبشرية فحسب بل كان موضوعاً له قيمته العملية . وفي تقديمه للفقرة التي يجعل منها واحدة من أهم التصريحات اللاهوتية ، يعلن في جرأة : « هكذا يقول الرب لمسيحه لكورش Cyrus ، الذي أمسكت يمينه ، لأدوس أمامه أمماً وأحقاء ملوك أُحُلُّ لأفتح أمامه المصراعين والأبواب لانغلق (٧٣) » وكان « كورش » ملك الفرس ، يبدو في نظر أشعياء أنه الشخص الوحيد القادر على أن يقهر « بابل » وعلى أن يضمن عودة المسييين إلى أورشليم مرة أخرى . ولقد برهنت الأحداث على أنه كان على صواب . إذ أن كورش لم يدخل « بابل » فحسب في سنة ٥٣٩ ق . م . بل أعاد إلى اليهود كل الأموال التي يستحوذ عليها « نبوخذ ناصر » من المعبد ، أما بالنسبة لرحلة العودة فقد أمر العائلات البابلية التي استخدمت العبيد العبرانيين : بتزويدهم بالطعام والمال ، بما في ذلك الاكتسابات لإعادة بناء المعبد ، وقال كورش ومن يبي في أى مكان ينزل به ، فعليه أن يطلب من أهالي هذا المكان أن يساعده بالفضة والذهب والأمتعة والحيوانات إلى جانب قرابين يقدمونها بحض اختيارهم لبيت الله القائم في أورشليم . ومالبث أن نظم المسييون رحيلهم ، ولكن عند عودتهم إلى أورشليم وجدوا أناساً غرباء وأعداء في انتظارهم . لقد مر جيل قبل أن يعاد بناء المعبد ، ومر قرن آخر قبل أن تدعم الحياة القومية على مبادئ ناموس موسى The Law of Moses وقد أعيد تحرير وتوكيد هذا الناموس في سنة ٤٤٤ ق . م . على يد الكاهن « عزرا Ezra » الذي مع الناس بقراءة اللوائح المقدسة لمدة دامت سبعة أيام .

ما هو كمال النبوة الذي تحدثنا عنه ؟ إنه الرؤيا التي عبر عنها « أشعياء الثاني » لرب ليس فقط إلهاً لإسرائيل بل لكل البشرية جمعاء ، وثانياً عن رب يطالب بولاء مطلق . ويشير الإله في الوصايا العشر إلى « آلهة أخرى » يعترف الإله بلا أدنى ريب بقوتها النسبية في المطالبة بالسيطرة : « لن يكون لكم من آلهة أخرى سوى » وفي أشعياء يقول الإله « أنا الرب وليس آخر ، لا إله سوى » (٧٤) . . أنا صنعت الأرض وخلقت الإنسان عليها . . أنا قد أنهضته بالنصر وكل طرفة أسهل » (٧٥) ومرة أخرى يقول : « هو ذا الأمم كمنقطة من دلو وكغبار الميزان تحسب (٧٦) . . ولبنان ليس كافياً للإيقاد وحيوانه ليس كافياً لمحرقه . كل الأمم

(٧٣) أشعياء ، الأصحاح الخامس والأربعون ١- (المترجم)

(٧٤) أشعياء ، الأصحاح الخامس والأربعون ٥ (المترجم)

(٧٥) أشعياء ، الأصحاح الخامس والأربعون ١٢ و ١٣ (المترجم)

(٧٦) أشعياء ، الأصحاح الأربعون ١٥ (المترجم)

كلا شيء قدامه . من العدم والباطل تُحسب عنده^(٧٧) . . أما عرفت أم لم تسمع . إله الدهر الرب خالق أطراف الأرض لا يكل ولا يعبأ . ليس عن فهمه فحص . . . الغلمان يعيون ويتعبون والفتيان يتعثرون تعثراً ، وأما منتظرو الرب فيجددون قوة ، يرفعون أجنحة كالنسور ، يركضون ولا يتعبون يمشون ولا يعيون^(٧٨) أكثر من هذا ، فإن وعى الخطيئة والموت ، الذى يجرى كشریان منتفخ خلال الفكر العتيق ، وهو ارتياع لا يمكن تفسيره^(٧٩) ، قد أضفيت عليه لأول مرة صورة من صور الراحة : « لاشك أنه احتمال أجزائنا ونحمل ما يكدرنا . . لقد ألقى الرب عليه آثامنا جميعاً » هذا هو بالفعل مغزى الإنجيل المسيحى .

خاتمة :

لو أننا ونحن نولى ظهورنا على أحداث قرون ثلاثة أو أربعة (إذ أن « أشعياء الثانى » كتب سفره منذ حوالى خمسمائة سنة قبل ميلاد يسوع) وتبصرنا فى العالم القديم ، للاحظنا جهدين ساميين نحو المعرفة الذاتية ، كالانحناءين الصاعدين فى رسم بياني : هناك التحدى المصرى للموت ، فثلاً أولاً فى المذهب المادى لبناء الأهرام ، وفيما بعد فى إدراك القيمة المطلقة لـ « ماعت » كانعكاسها فى السلوك الفردى ، وثانياً ، هناك التحدى العبرى لآلهة الطبيعة القديمة عن طريق رؤية إله الإصلاح والعدالة والرحمة الذى أدرك أصلاً على أسامس أسرى وقبلى وأخيراً كآله أسمى فوق كل الناس . وبين هذه القوى الدافعة الصاعدة للتطلع الأخلاقى . هناك أفكار بالمثل زائفة ووضيعة : الانحمار الضخم فى صكوك غفران « كتاب الموتى » وكتيبات السحر البابلية ، وعبادة الأوثان التى يستعصى على الإسرائيليين البره منها ، عبارة بعل Baal وملوخ Moloch وما إلى ذلك .^(٨٠) وهناك أيضاً مثل هذه الطرق المسدودة مثل عبادة أختانون للشمس وأساطير توموز Tammuz وأسطار Ishtar بما فيها من جبال غريب توحى بأنه لا يمكن لأية ديانة أن تستغنى عن عنصر من عناصر الشعر .

(٧٧) أشعياء الأصحاح الأربعون ١٦ و ١٧ (المترجم)

(٧٨) أشعياء ، الأصحاح الأربعون ٢٨ - ٣١ (المترجم)

(٧٩) قارن ذلك بمايل : عندما خلق الآلهة الجنس البهري قرروا فناء البشرية ، أما الحياة فقد احتفظوا بها لأنفسهم

(ملحمة جلجا ميش)

(٨٠) « أما هم فجاءوا ، إلى بعل فقُور Baal Peer ونذروا أنفسهم للخزى ، وصاروا رجساً كما أحبوا » (هوشع ،

الأصحاح التاسع ١٠) .

ولقد أظهر كورش ، الملك الذى أشرف على عودة اليهود من بابل ، اعظم احترام لديانة هؤلاء المسيبين السابقين ، بل يبدو أنه قد اعترف بإله إسرائيل وبأنه الإله الحق . لقد أطلق نداء فى بيان ملكى أن « الرب إله السماء قد أعطانى جميع ممالك الأرض وهو أوصانى أن أبني له بيتاً فى اورشليم التى فى يهوذا ... الرب إلهه معه .. »^(٨١) وقد يتشكك المرء فى أنه ، كما فعل نابليون فى مصر ، قد مارس المعتقدات التى خدمت مطامحه السياسية ، ولقد أولى احترامه أيضاً لكهنة بابل . لقد كان الفاتح ، فى تلك الأزمنة ، مضطراً لأن يسلم ، كما يحدث بالنسبة للإسكندر الذى مالبت أن اكتشف ذلك بدوره ، بأن الشعوب لن تغير دينها بنفس السهولة التى يغيرها الملوك دينهم . وفى سنة ٣٣٤ ق . م . تقبل هذا الشاب الأخيلى^(٨٢) ، عند وصوله إلى فلسطين ، تقبل من كبير الكهنة استسلام اورشليم ، واستمر فى السير على نهج سياسة كورش فى التسامح الدينى ، وبعد ذلك بثلاث سنوات ، بعد الاستيلاء على بابل ، صار حاكماً على الشرق الأوسط بأسره ، وكانت مملكة « يهوذا » فى منتصف الطريق بين مصر وفارس ، ولذا كانت دائماً تجتذب الغزو الأجنبى ، إذ صارت بعد ذلك خاضعة لسيادة روما . وفى عهد أوغسطس قيصر Caesar Augustus ، فى وقت كان فيه العالم الرومانى مستقراً استقراراً فيه ما يكتفى لإناحة أخذ تعداد للسكان ، ولد يسوع فى زريبة مستقلة عن خان مزدحم فى « بيت لحم » فى محافظة الجليل ، عندما كان هيرودHerod ملكاً على مملكة يهوذا .

على أن أصل وذبوع ذلك الامتداد الذى يظنه كثير من المفكرين استكمالاً للمذهب اليهودى ، وهو المسمى بالعقيدة المسيحية ، لا يدخل فى مجال هذا الكتاب الذى يتوقف عند مشارف « الرؤيا » . إن التبشير بإنجيل يسوع المسيح ، وإقامة كنيسته أمران لا يمكن للفلسفة ولا للتاريخ أن يظلا بلا اكتراث حياتها . لقد كان الميلاد حقيقة جديرة بالتسجيل ، والموت نتيجة لإجراءات شرعية ، وإقامة الكنيسة أمر واقعى ، إذ أننا لانعلم الكثير عن بقائها فى التاريخ أكثر مما نعلمه عن أنها ، إلى حد كبير ، هى التاريخ الذى بقى . وهذا البروز لمعيار جديد لقيم ما ، حياة جديدة Vita Nuovo فى التفاعل التاريخى يثير اعتبارات فلسفية ذات أهمية كبيرة ، ولكن تخطيط الفلسفة الحديثة قد تكفل به بصورة خاصة فى العالمين الرومانى والبيزنطى ، أولاً شخصية معتزلة مثل « فيلو Philo » السكندرى (وكان معاصراً للمسيح وإن لم يكن

(٨١) أخبار الأيام الثانى ، الأصحاح السادس والثلاثون/ ٢٢ (المترجم)

(٨٢) كان هذا هو مفهوم الإسكندر فى نفسه .

مسيحياً) ، ثم الرعيل الأول من الآباء اليسوعيين في كل من الشرق والغرب ، وأخيراً عظماء اللاهوتيين في العصر الوسيط . ولتأكيد أن العقيدة المسيحية قد مارست غير ذلك تأثيراً غير هام على العالم الشرقي ، قد يكون خطيراً وخطأً جسيماً معاً ، من وجهة نظر مفهوم مذهب الزارادشتية والإسلام . وقلة من الديانات محصنة تحصيلاً ذاتياً ، وكل الديانات العظيمة يمكن التغلغل فيها . والكنيسة قد تضطهد كنيسة وكثيراً ما تضطر كنيسة إلى أن تطرد من محيطها عنصر خطر وسخط ، كما طردت الكنيسة الكاثوليكية الهراطقة المتطهرين *Catharist heresy* . وكما حدث بالنسبة للمعتزلة في الإسلام ، ولكن الدافع وراء كل عقيدة - حتى أعظمها سخفاً وبدائية ، مثل العبادة التي نشأت خلصة وهي عبادة الحظ والمصير التي سبقت طول بقاء الإنسان - هو كما سبق أن أشرنا ، مماثل . ولذلك فإننا قد نجد من الملائم في أثناء ما تبقى من استعراضنا ، أن نسقط من حسابنا ديانة العالم كله نظراً لما يكتنفها من الكثير من الصلات الغامضة والمضلة ، وأن نلتزم بالتعريف الذي هو أكثر وضوحاً . ومن ثم ، فسننظر إلى الديانة لاعلى أنها منافس أو حتى امتداد للفلسفة ، بل على أنها العنصر الأساسي في الفلسفة الدائمة .